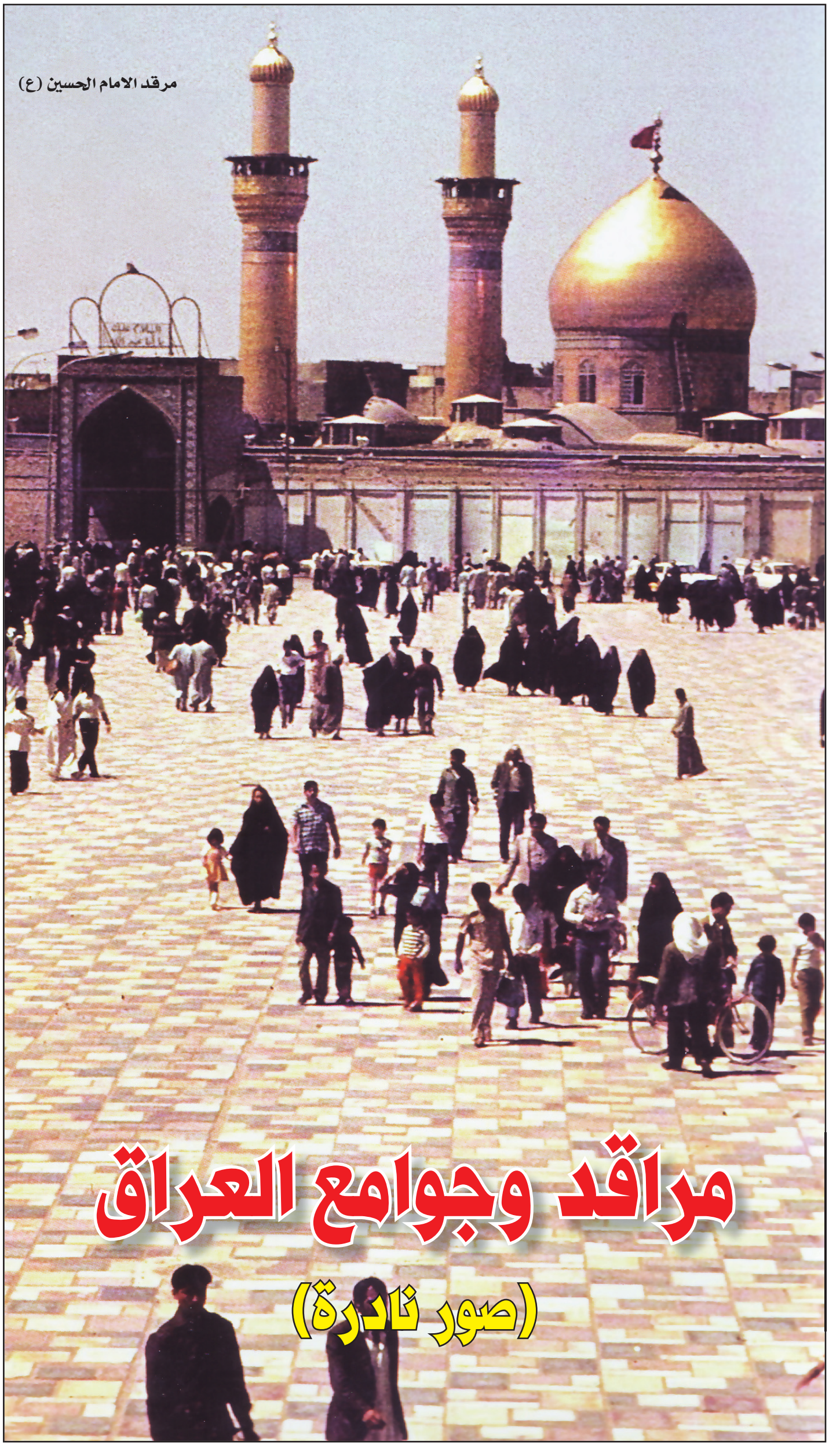

مراقد وجوامع العراق

(صور نادرة)

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2544) السنة التاسعة
الاثنين (23) تموز 2012

4

الملا عبود الكرخي
اسرار حياته الخاصة

عبد العزيز القصاب

كنت متصرفا في كربلاء سنة 1922

عبد العزيز القصاب
سياسي عراقي راحل

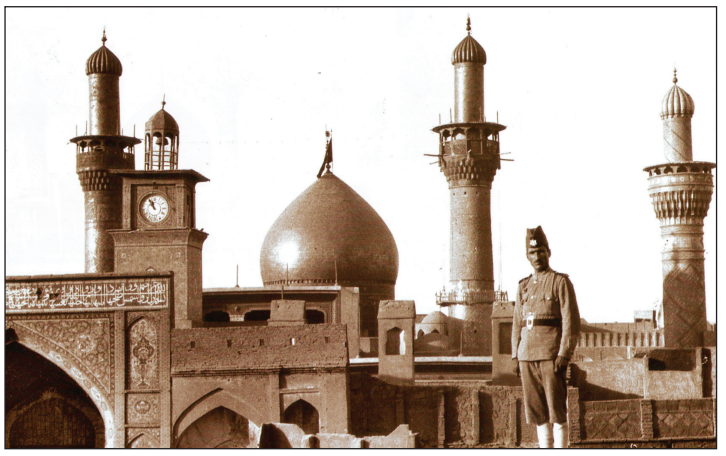
كربلاء

عبد العزيز القصاب

صدر أمر نقلي إلى كربلاء في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٢ والالتحاق بوظيفتي الجديدة بسرعة. وعلمت في بغداد ان سبب الاهتمام والاستعجال هو الخلاف بين الملك فيصل ودار الاعتماد، فجلالته لم يكن راغباً في استمرار المتصرف السابق، عبد الحميد اسد خان، في وظيفته لعلاقته الوثيقة بدار الاعتماد، وعين حديثاً الحاج سليم، قائم مقام الكاظمية، متصرفا عوضا عنه. وما إن وصل الحاج سليم الى كربلاء حتى اوعزت دار الاعتماد الى (المستر موكي) معاون مستشار الداخلية لارجاعه حالا وفي اليوم نفسه، متحدية بذلك الملك فيصل ووزير داخليته. وقد ادت لهذه الحكاية الى توتر شديد بين البلاط ودار الاعتماد، واستشار الطرفان رئيس الوزراء للفصل بينهما. اشار النقيب بان لا يبقى اسد خان في وظيفته ولا ان يرجع الحاج سليم الى كربلاء، ورشحني للمنصب تفاديا للمشاكل. فوافق الطرفان وتقرر ارسالي بسرعة قبل ان ينتشر خبر الخلاف بين الناس.

قبلت بالامر الواقع وسافرت الى كربلاء، وكان في استقبالي هناك سادة اللواء واشرافه ورؤساء القبائل المعارضة لعبد الحميد خان، وباشرت عملي في ١٦ شباط ١٩٢٢.

كاية ابنة المومن

كانت قضية ابنة المومن اول قضية عرضت علي في كربلاء، ادت الى عداء واضح بين الموظفين وبعض الكربلائيين (الموامنة) والسادة، ومنع الموظفين من دخول العتبات المقدسة لاداء الزيارة.

وبعد التحقيق عن اسباب ذلك، علمت ان احد الموامنة زعم واذاع في صحن سيدنا الحسين، عليه السلام، بان ابن مأمور البرق والبريد، عطا افندي، ومعه اولاد موظفين اخرين قد تحايلوا على ابنته البريئة واغتصبوها، وتجمع الناس نتيجة لذلك في الصحن وقرروا الهجوم على الموظفين، وقد منعهم من ذلك المتصرف السابق، عبد الحميد خان، في اواخر ايامه. وعلى اثر ذلك انزوى الموظفون في دورهم تحسبا لاعتداء الموامنة والاهالي عليهم. وقد اسر عبد الحميد الي بهذه القصة متأثرا وطلب مني معالجتها بسرعة قبل ان يتوسع الخلاف.

استشرت من يوثق بهم فقالوا ان الحكاية مختلفة وليس لها نصيب من الصحة، فان ابن عطا افندي هو صبي صغير لا يتجاوز عمره العشر سنوات، وقد اجريت له عملية الختان قبل شهرين من الحادث المزعوم، وان القصد من الحكاية هو إثارة البلبلة والفوضى لأمر مدبر له علاقة بقضية الحاج سليم.

دعوت محمد علي كمونه والحاج رشيد جلبي الصافي والسيد محمد مهدي الطباطائي، وزير المعارف السابق، ليكونوا اعضاء في لجنة للتحقيق في هذه المشكلة، على ان يقوموا بعملهم بسرية تامة. وشعرت ان الصافي والطباطائي كانوا غير مصدقين الحكاية وسكتوا عنها تفاديا لتهريج المغرضين القاصدين تعكير المياه. واوعزت الى الشرطة بجمع الوثائق عن المعتدى عليها: عمرها وجنسيتها ووالدها، ومعلومات مماثلة عن الصبي المتهم وتقديمها الى اللجنة. واوصيت باتأني في اعلان نتائج التحقيق حتى يتوافر لي وقت كاف للتعرف على علماء البلد واعيانهم، وكسب ثقتهم بحيادي، واعطائي فرصة للسيطرة على الامن في المدينة.

عاد عبد الحميد خان المتصرف السابق الى محل اقامته الدائم في النجف، واصبحت حكاية ابنة المومن حديث الناس، واشتد الجفاء والتوتر بين اطراف النزاع. وبعد ان شعرت بثقة الاهالي بي دعوت اللجنة للانعقاد، وابرزت لها التقارير والوثائق التي حصلنا عليها، واقترحت استدعاء الابنة للحضور امام اللجنة، واتفقنا على تكليف الحفار باشي الحاج عبد الله الكربلائي باحضارها والقيام بذلك بسرعة وامانة.

حضرت البنت ووالدها بعد نصف ساعة، واذا بها صغيرة العمر لا يتجاوز طولها ارتفاع المنضدة التي امامنا، وهي متسترة بعباءة بخجل. اخذنا نلاطفها ونبتسم لها ونمسح على رأسها، واعطيناها قليلا من الحلوى واضحكنا والدها، وبعد مغادرتها طلبت من اللجنة عرض الطفلة على الفحص الطبي من قبل قابلة امينة، وكلفنا الحفار عبد الله باستصحابها مع والدها، وقلنا اننا سنبقى مجتمعين حتى تأتينا بالتقرير الطبي، وجعلناه يقسم بالمحافظة على السر والصدق، كما طلبنا منه ان يطلب من القابلة ان تقسم على صحة تقريرها. رجع الينا الحفار باشي بعد ساعة ونصف، وبعد ان اقسم قال: ان القابلة قد كشفت على الطفلة بحضور والدتها وجدتها ووجدت انها لم تمس بسوء. وهكذا مرت هذه المشكلة بسلام ولم يتم بحثها بعد ذلك.

تدخلات (مس بل)

اخبرني قائم مقام النجف، ليلة ٢٦ حزيران ١٩٢٢ عن مقتل الشرطي عبد الحسين من مراتب مخفر الدرعية ومحلة العمارات اثناء قيامه بواجبه في حراسة باب الدرعية. وطلب القائم مقام من متعهد الحراسة (كردي بن عطية ابو كلل) الالتزام بتعهده وتسليم المجرمين في ظرف عشرة ايام. واوقف المتعهد وحارس المحلة كاجراء احتياطي الى حين القبض على المجرمين، وامر بالقاء القبض على بعض الصبية المشاغبين المعروفين بسوء اخلاقهم، لمحاولتهم الهرب بعد وقوع الجريمة مما اثار الشكوك حولهم.

وفي اليوم التالي، جاء مفتش الشرطة (الكابتن رووِل) واطلق سراح الموقوفين من غير إخبار القائم مقام، وعندما علمت بهذا امرت باعادة المتهمين الى الموقف حالا، وارسلت حسام الدين جمعة، مدير الشرطة، الى النجف للمساعدة في التحقيق وطلبت من توفيق الخالدي، وزير الداخلية، منع المفتش الانكليزي من التدخل بالامور الادارية في اللواء لان في ذلك إساءة الى سمعة الحكومة وهيبتها وقد اثار تدخل المفتش امتعاض اهل النجف وعلمائها واستهجنوه وطالبوا القائم مقام بالالتزام بالعدالة وبما تقرره المحاكم، وطلبوا مني الذهاب الى النجف لاصلاح التصرفات الادارية الخاطئة فيها.

ومن النجف، اتصلت بوزارة الداخلية وبمفتشية الشرطة العامة في بغداد ولم اتلق جوابا فاضطررت الى السفر واتصلت بوزارة الداخلية وبمفتشية الشرطة التي كانت بعدة نوري السعيد. وطلبت اعفائي من متصرفية كربلاء ان لم يوافقوا على تبديل المفتش (الكابتن رووِل).

كان رجال الداخلية يؤملونني من غير نتيجة. وفي الوقت ذاته، اخبرني سكرتير الداخلية بان (المس بل تطلب حضوري الى دار الاعتماد، استقبلتني هناك وفاتحتني بما يلي حرفيا: "اراك تصر على تنحية الكابتن البريطاني في الحلة، فمن اين لك هذا الحق؟ ولماذا تتدخل في القضايا المتعلقة بالبريطانيين؟". ما إن سمعت ذلك حتى صرخت بوجهها: "إني متصرف اللواء المسؤول عن شؤون ادارته العامة واهمها القضايا التي تمس الامن، واني لا اقبل منك هذا الكلام واحتج على تدخلك"، وخرجت من غرفتها غاضبا. لحقت بي الى الخارج وامسكت بسترتي وهي تقول: "العفو لا تزعل، وانا لا اقصد شيئا من هذا، ارجع لنتفاهم". لم التفت لطلبها وتركت دار الاعتماد مسرعا الى وزارة الداخلية، وقدمت احتجاجي على هذا التدخل وطلبت قبول استقالتي ان لم ينقل (الكابتن رووِل) عقابا على عمله.

قام (كورنواليس) مستشار وزارة الداخلية واتصل بالمندوب السامي (برسي كوكس) تلفونيا واخبره بما جرى. وابدى المندوب السامي لي اسفه على ما حدث، وقال انه سيطلب (المس بل) لينبهها على خطئها. واتصل المندوب السامي مرة اخرى بوزير الداخلية واخبره ان (المس بل) مستعدة لتقديم الترضية والاعتذار من عبد العزيز القصاب، وما عليه إلا ان يعين المحل الذي يريده للقائها. اجبته: "اني لا اريد ان اراها ولا اريد اعتذارها" وان نقل الكابتن فقط سيكون كافيا لي.

رجعت الى كربلاء وجاءني (الكابتن رووِل) ومعه (الكابتن لودز) الذي كنت اعرفه من الكوت، واعترف الاول بخطئه وطلب المعذرة عما بدر منه. وهذا انتهت القضية، واستمرت الادارة بتحقيق العدالة بموجب القانون ومن غير تدخل خارجي.

تجمهر خطير في النجف الاشرف

التأمت في النجف في زيارة يوم الغدير جموع غفيرة من عشائر السماوة والديوانية والحلة بشكل لم يسبق له مثيل. وغصت المدينة بعشرات الالاف من الناس ازدحمت بهم الطرق والميادين، ونام الكثير منهم على ارصفة الطرق وعلى ارض الصحن الشريف.

استلمت برقية من وزارة الداخلية تطلب مني السفر الى النجف لحضور هذه الاجتماعات ومراقبة الاحداث عن كثب. وعززت قوات الشرطة المحلية باخرى من الديوانية والمراكز الاخرى، وارسلت مدير شرطة اللواء، صالح حمام، مزودا بالتعليمات اللازمة لنشر قواته في احياء المدينة، وعدم افساح المجال للاخلال بالامن والنظام وتأمين الراحة للزوار.

سافرت الى النجف قبل موعد الزيارة بثلاثة ايام، واتخذت من دار البلدية التي تقع فوق مدخل المدينة مقراً لاقامتي.

متصرف الحلة في النجف

وصل النجف بعد يوم واحد علي جودة الايوبي، متصرف الحلة، يصاحبه خيري الهنداوي، قائم مقام الشامية، وشاكر محمود، قائم مقام (ابو صخير)، مع بعض الموظفين، وقاموا بزيارتي في اليوم نفسه. رحبت بهم، وبينت ان جماعة الغري طلبت مني اجازة اقامة حفلة تكريم لهم. وبالنظر لتوتر الاوضاع، كلفتني الوزارة بمنع الاجتماعات والاحتفالات العامة، ولذا رجوتهم تأجيل الحفل حتى تنقض الجماهير وتنتهي الزيارة. لكن علي جودة رفض الاقتراح وقال: "لا يمكنني رفض جماعة الغري". كررت طلبي بان يعيد النظر في هذا الاجتماع حفظا للامن والسلامة العامة. ثم راجعني طالبو الاجازة مرة اخرى فاجزتهم لاقامة الحفل بعد ان اكدت عليهم ضرورة المحافظة على الامن والنظام. وطلبوا مني، قبل مغادرتهم، حضوري احتفالهم في اليوم التالي فانبت عني مدير شرطة اللواء. القيت في الحفل قصائد وخطب تكريمية للمحتفى به وانتهى من غير وقوع ما كنت احذره واخشاه.

العشائر تطالب بابعاد المستشارين الانكليز

جاءني في الساعة الثامنة من ليلة زيارة الغدير، رسول من المجتهد السيد ابو الحسن الاصفهاني، يدعوني لحضور اجتماع لرؤساء العشائر في بيته والاستماع الى مطالبهم، على ان يكون حضوري منفردا. ذهبت الى الدار مصطحبا صالح الحمام، مدير شرطة اللواء، يتقدمنا خادم يحمل فانوسا، وكانت الطرق تعج بالناس وافراد الشرطة. وعند وصولي منعطفا الى الطريق على مقربة من الدار، طلبت من مدير الشرطة تركي لوحدي وانتظاري الى حين رجوعي. طرقت الباب، ففتحه لي شخص اثار علي بان اترك الخادم واصعد بمفردي الى السطح، حيث كان الاجتماع. كان سطح

شعلان ابو الجون

الدار مزدحما، وبعد السلام دعيت للجلوس الى جانب السيد ابو الحسن، وكان الى جانبه صديقي العالم الورع والوطني الفاضل الشيخ عبد الكريم الجزائري.

عرفت من الحاضرين السيد محسن ابو طبيخ، وشقيقه جعفر، وعبد الواحد الحاج سكر، وعبادي الحسين، وعلوان الياسري، وناصر الحسين، وشعلان او الجون (رئيس الظوالم) وكاظم العوادي وغيرهم.

كان السيد الاصفهاني اول من تكلم، قال: ان لدى السيد محسن ابو طبيخ امورا يريد عرضها عليكم. قال السيد محسن: "كنت في بغداد وقابلت (كورنواليس)، مستشار الداخلية، وعرضت عليه شكاوانا من المستشارين الانكليز في الالوية لتعسفهم وجبروتهم وسخطهم على الناس، وطالبت باقصائهم. وبعد كلام طويل وعد المستشار بالاستغناء عنهم وهو لم يف بوعده لحد الان. نحن نريد منك ان تطلب من الداخلية تنفيذ ما وعدنا به حالا والا فسنكون في حل مما سيحدث في البلاد".

سألني ابو الحسن: "ماذا تقول في هذا الطلب؟" قلت: "إني لست على علم بهذا ولكم علي شيء واحد وهو ان اسال الوزارة عن موقفها وابلغكم بجوابها". طلب الحاضرون الاجابة بصورة مستعجلة وسينتظرون حتى اليوم التالي قبل ان يقوموا بما يلزم. قلت للسيد الاصفهاني: "إنكم على علم بهذا الحشد العظيم في البلد، وقوات الشرطة الكبيرة الموجودة للسيطرة على هذا الوضع المتأزم، وهي واقفة بالمرصاد لكل من يحاول الاخلال بالنظام، او الاساءة لقدسية الزيارة، واني لاخشى اصطدامها وبالجماهير". وقلت: "اني اعدكم باستيضاح الامر من وزارة الداخلية بسرعة على شرط ان تمنع الاجتماعات اثناء ايام الزيارة، واريد اصدراكم فتوى بتحريم ذلك، وانا لا اتمكن من تحمل المسؤولية اذا ما اريقت الدماء وسادت الفوضى". التفت السيد ابو الحسن الى الشيخ الجزائري وكلمه، ثم خاطب الجزائري الحاضرين وقال: ان حجة الاسلام يرى ان المتصرف مصيب في رأيه، وسرني هذا الموقف. واخذ الشيخ الجزائري بكتابة الفتوى وكانت مختصرة ومحتواها: "تحرم الاجتماعات والتجمعات خلال ايام الزيارة". وبعد ان وقع المجتهد عليها حفظتها في جيبي وغادرت الاجتماع. وكان الخادم لا يزال في انتظاري خارج الدار حاملا فانوسه ومعه صالح حمام. وحال وصولي الى منزلي اعطيت الفتوى الى المنادي ليعلنها على الناس، وكان تأثيرها جيدا ومباشراً.

علي جودة الايوبي

نوري السعيد

رد الحكومة على طلب العشائر

ارسلت برقية رمزية مستعجلة الى وزارة الداخلية، وتلقيت في اليوم التالي برقية من (كورنواليس) تضمنت نفي ما ادعاه السيد محسن ابو طبيخ وعدم وجود وعد منه لاقصاء المستشارين، وطلب مني تكذيب الخبر حالا.

كان من رأيي ان من الحكمة التريث والكتمان في إعلان هذا الجواب، فقد يدفع الجماهير للاجتماعات الصاخبة والخطب والقصائد المثيرة. وفي عصر ذلك اليوم، اجتمع عندي في دار البلدية عدد كبير من السادة والسيوخ منهم: السيد علوان الياسري وكاظم العوادي، ودام اجتماعي بهم حتى المغرب. سألوني إن كان جواب الداخلية قد وصل، وحرت في الاجابة فان قلت (كلا) خالفت الحقيقة، وان قلت (نعم) اوقدت النار في الازمة. اجبتهم: باني سابلغهم بالجواب قريبا. تركت مجلسهم وصعدت الى سطح الدائرة لافكر بما يجب علي عمله بهدوء، وجال بخاطري زيارة بعض رؤساء العشائر ممن تربطني بهم صداقة متينة لابلغهم بنص جواب الداخلية قبل ان ابلغ اتباعهم. سالت من حولي عن محل سكناهم، فذكر لي احدهم محل اقامة شعلان ابو الجون وناصر الحسين، وطلبت منهم ان يفتشوا عن محلات اقامة الاخرين، وعادوا واخبروني ان الجميع يؤدون صلاة المغرب في الصحن. وبعد مرور ساعة، سمعت اصوات سيارات ملفتة للنظر وجموع تغادر النجف من تحت دار البلدية. سألت معاون الشرطة، فاجاب: "ان رؤساء العشائر يخرجون بسياراتهم وخيولهم". وبقيت اراقب عن موقعي هذه المواكب وهي تغادر لمدة ثلاث ساعات.

الملك فيصل وراء الاحداث

علمت بعد مدة ان متصرف الحلة، علي جودة الايوبي، قد جاء للنجف بتكليف خاص من الملك فيصل الاول، وقد ادى هذا الى خلاف بين البلاط ودار الاعتماد، فصل بعده كل من علي جودة ومستشار الحلة، (الميجور دكسن)، من منصبيهما.

كما علمت بان رؤساء العشائر الذين غادروا النجف في تلك الليلة قد اجتمعوا ثانية في (ابي صخير) وحرروا مضبطة قدموها الى وزارة الداخلية تتضمن شكوى مني، لاعتقادهم باني كنت اقصد اعتقالهم عندما فتشت عن محلات اقامتهم، في الوقت الذي لم يقوموا فيه باي عمل يخل بالامن. وعندما سألتني وزارة الداخلية كذبت هذا الادعاء.

الانكليز يعرفون كل شيء

رجعت الى كربلاء بعد ثلاثة ايام. وبعد شهر جاءني فراش الدائرة الى بيتي ظهرا، وقال: ان رجلا انكليزيا ينتظرني في الدائرة. ذهبت للتمصرفية ووجدته مع زوجته ولم اكن قد رأيتهما من قبل. عرفني بنفسه، وقال: إنه (الميجور دكسن)، مستشار الحلة السابق، وقال: إنه بعد ان فصل من وظيفته رغب في زيارة كربلاء واصدقائه فيها، ثم اخذ يتكلم عن اجتماع الرؤساء في دار المجتهد السيد ابو الحسن الاصفهاني، واخذ يصف لي الاجتماع بدقة وتفصيل، ذاكرا اسماء الرؤساء ومحل جلوس كل منهم وما دار بينهم من حديث، وحتى موضع الفانوس في سطح الدار وتفاصيل صغيرة اخرى. قال لي: إنه علم بكل ذلك بعد ساعتين فقط من مغادرتي الاجتماع وفي الليلة نفسها، مع انه لم يترك مقر وظيفته بالحلة ابدا وعجبت من كفاءة الاستخبارات الانكليزية وسيطرتها التامة.

عن مذكرات القصاب

عين الزمان .. ساعة القشلة

صباح نوري

اذا أردت ان تنتشي عبقا بغداديا معطرا بخضر الياس وشموعه فعليك بزيارة مبنى القشلة وساعته القديرة القديمة التي تعطيك انطباعا عظيما لبغدادنا الحبيبة.... فهذه الساعة الجميلة ببرجها الرشيق بنيت بعد بناء(مبنى السراي). الثكنة العسكرية للعثمانيين في زمان الوالي العثماني (نامق باشا). وأكملت في عهد (مدحت باشا) عام (١٨٦٨) م. فأراد ألباشا أن يوقظ الجنود الى اوقات التدريب العسكري لأن القشلة مركز الخيالة لقواته ومقر ولايته أيضا فشرع في بناء ساعة القشلة في ساحة الثكنة وهي عبارة عن برج عال وفي أعلاه نصبت الساعة وهذه الساعة تدق كل ساعةً فقط وكان صوت رنينها تسمعه بغداد (كرخ ورصافة). وخاصة اوقات الليل وألفجر فكان أهالي بغداد من العمال والموظفين يستيقضون على دقاته ليذهبوا الى أعمالهم وكانت الساعة مضاءة وتشاهد من أماكن بعيدة لكن اليوم البنايات العالية المحاطة بها حجبتها عن الأنظار . وكان الناس يضبطون ساعاتهم على ساعة القشلة . وللعلم أن مدحت باشا قد بنى السراي وبرج الساعة من (حجارة أسوار بغداد الشرقية). فقد هدم تلك الأسوار بعد أن دخل سلاح المدفعية في القتال ودك الحصون . إن برج الساعة عبارة عن شكل مربع طول ضلعه ٤ أمتار يضيق كلما ارتفع عن الأرض ويشبه تصميم البرج الى حد كبير (المئذنة) وارتفاع ألبرج (٣٠ متر) وبداخله سلم حلزوني من (٧٣ باية). وفي نهايته غرفة مربعة الشكل وضعت فيها مكائن الساعة ذات الأربع جهات . وتحوي أيضا علي جرس الساعة ارتفاعه (١ متر). وقطره (٣ متر). وهو منفصل عن الساعة وتتم عملية تنصيب الساعة (تكويك) بوساطة مفتاح يشبه (هندر السيارات القديمة) لتعطي قوة تشغيل لمدة (١٠ أيام) وللجرس (٧ أيام). وللساعة أربعة وجوه : الوجه الجنوبي والوجه الغربي يعتمدان التوقيت العربي ، وأرقام الوجهين بالعربية). أما الوجهان الشمالي والشرقي فيعتمدان التوقيت الافرنجي وأرقامهما باللاتينية ألقديمة. وفوق قبة البرج سهم حديدي مربوط من الوسط ويتحرك بحرية ويؤشر على حركة الريح وتحته أسهم ثابتة تؤشر على الجهات الأربع .

ووضعت هذه الأسهم من قبل الجيش البريطاني عند دخول بغداد عام (١٩١٧م) ووضع معها (التاج الانكليزي) وتمثال للقائد العسكري لجمن الذي قتل على يد قادة ثورة العشرين العظيمة. وكان السيد (عبد اللطيف أحمد الساعاتي) هو المسؤول عن تنظيف ودهن وتوقيت الساعة وقد ظل يعمل بها حتى وفاته عام (١٩٧٨ م). وتبين أن ساعة القشلة المضبوطة في توقيتاتها وحركتها الميكانيكية مصنوعة على أدق النظريات لصناعة الساعات لهذا اعتمد البغادة عليها في توقيتاتهم . فكل الدول تعتمد على ساعاتهم مثل لندن تعتمد على (ساعة بك بن) والقاهرة على (ساعة جامعة القاهرة) .

الملا عبود الكرخي

اسرار حياته الخاصة

حسين الكرخي
كاتب راحل وهو حفيد الكرخي

لابد لابناء هذا الجيل والاجيال اللاحقة ان يعرفوا من هو الملا عبود الكرخي ؟ (دانتي) العراق، وقيثارة الشعب، الذي كان برأي شاعر العرب الاكبر المرحوم معروف الرصافي، (اقدر من شعراء الفصحى على احداث حركة في افكار السواد الاعظم، لان شعره مفهوم عند العامة اكثر من شعرهم). وقبله يقرون ظهر (جرير) وكان يحق شاعر عصره الشعبي، فقد سأل رجلا من بني طهية: اننا اشعر، انا ام الفرزدق؟ فاجابه: انت عند العامة والفرزدق عند العلماء، فصاح جرير انا ابو حرزة، غلبته ورب الكعبة، والله ما في كل مئة رجل عالم واحد.

وهذه باختصار شموع مضيئة على درب حياته الطويلة:

- هو عبود بن الحاج حسين بن عباس بن سهيل بن نجم بن عبد الله بن فارس، وامه زهرة ال ناصر.

- ينتسب من جهة الاب الى (ألبو طيف) المنحدرة عن (عنزة)، ومن جهة الام الى (البو سلطان) الزبيدية:

(سلطاني) من (البو هلال)
و(طيفي) عني سل (سلمان)
(ابن براك) لو (محسن)
ضنوة (نايف الجريان)

×××

وشفت والدتي هرمه عمرها ميه
اصلها من (البو سلطان) وعراقية

- ولد عام ١٨٦١ في جانب الكرخ من بغداد (حسب دفتر نفوسه وجواز سفره)، ولكن الادلة والقرائن تحدد ولادته بعام ١٨٥٥م، يؤيد ذلك قول الشاعر نفسه في عدة مواضع من شعره انه بلغ التسعين وربما تجاوزها:

قد بلغت من العمر تسعين عالم
لم تكن الا خيالا في منام
انا شيخ وهمتي همة غلام
واسيب عالحيطان سيبة حيه

واكد ذلك بقوله مخاطبا المرحوم حكمة سليمان:

وعمري قد بلغ تسعين
سنة يا قدوة الاوطان

وقال ايضا في قصيدته (الخرافيات):

رجلي ييلي كبري مهريش وسني
بلغ تسعين، سل عني الحبوبات

ولكن الاكثر اهمية ووضوحا قوله:

ويحذر (القناة) افطن انا رجال

ولما كانت قناة السويس قد احتفرت عام ١٨٥٩ وافتتحت عام ١٨٦٩ وانه مر بها وهو (رجال) والرجال في عرف الناس ايام زمان من بلغ سن الحلم (١٤-١٥) سنة – مع قطار الابل الذي يحمل تجارة والده، فيكون تاريخ ولادته الاصح والارجح هو ١٨٥٥ م وليس ١٨٦١م، وهذا ما يراه الاستاذ د. زاهد محمد، في كتابه (دراسات عن الملا عبود الكرخي) صفحة ٢١ الصادر عام ١٨٧١ ن وزارة الاعلام / المركز الفولكلوري.

ويراه ايضا المرحوم عبود الشالجي في موسوعته المطبوعة في بيروت عام ١٩٨٢، وكذلك الاستاذ باسم عبد الحميد حمودي في مقال له بعنوان (جولة في حياة الملا عبود الكرخي) المنشور في العدد ١٦ من مجلة (الرافدين) ليوم ١٥ شباط ١٩٩٢.

- ادخله والده الكتاتيب ببغداد في السادسة من عمره على عادة الناس في ذلك الوقت، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم واطلع على الكتب المعاصرة التي يسرها له والده في مختلف العلوم فقد كان والده واسع الثراء يتاجر بالابل والجلود وغيرها بين بلدان الشرق الاوسط .

معروف الرصافي

- ترك الكتاتيب في الثانية عشرة من عمره، فاخذ يرتاد حلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية.

- عندما تجاوز الرابعة عشرة ودلف الى الخامسة عشرة من عمره، دفع به والده الى الحياة العملية، فكان يرافقه في قطارات الابل الى الشام ومصر وتركيا وايران والحجاز وغيرها، وقد طبعته هذه السفرات بطابع الصلابة وخشونة العيش، كما انها احججت شاعريته فاخذ ينظم الشعر باللهجة البدوية، لانها اللهجة المشتركة المفهومة في اغلب بوادي البلدان العربية التي كان يمر بها، عن بداياته الشعرية قال من قصيدة وجهها الى الشيخ ملا افندي، الزعيم الكردي المعروفة، منشورة في العدد ٤٤ المؤرخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٧ من جريدته (الكرخ):

عثمان الموصلي

بديت انظم شعر من عمري عشر سنين
الى تاريخه تجاوزت انا الخمسين

- ظل يزاول هذا العمل وينظم الشعر حتى بلغ الخامسة والثلاثين ، وفي تلك الاثناء توفي والده فعاد الى بغداد واستقر بها.

- تزوج في العشرين من عمره، وبعد فترة من الزمن توفيت زوجته (ببيبي الحاج حمد) فتزوج بثانية (شمسة) ثم توفيت، فتزوج بثالثة (نورية) وهي الاخيرة كان عمره انذاك ستين عاما، وقد انجب من نسائه خمسة اولاد: نجم (١٨٩٨ – ١٩٦٤) ، حاتم (١٩٠٠ – ١٩٧٤)، نايف (١٩٠٥ – ١٩٥٦) ، مزهر (١٩١٣ – ١٩٨١) ، طارق (١٩٢٨ – ١٩٩٠) وثلاث بنات: مضوة (١٩٠٦ – ١٩٨٥) ، مهيبة ١٩٣٢، نهلة ١٩٣٥، ولم يبق من الجميع سواهما، وعدد كبير من الاحفاد والاسباط واولادهم، وانتهى زواجه من ثلاث نساء اخريات باطلاق ، الاولى (مهدية) عام ١٩٠٨، والثانية (زنوبة بنت حمزة البو جدوع) عام ١٩١١، والثالثة (زهرة بنت الحاج علي) عام ١٩٢٢، لاسباب تعود الى الخطبة دون الرؤية، والى اكاذيب ومبالغات الخاطبات في الوصف والترغيب.

يقول العلامة الاستاذ د. حسين علي محفوظ في مقال له نشر في جريدة (القادسية) الصادرة صباح الاحد ١٩٨٩/١/٢٢ برقم ٢٧٧٩، (وقد اهدى الى حفيده الاتاذ حسين الكرخي صورة حكم اصدره جدي المرحوم الشيخ محمد جواد محفوظ، قاضي لواء كربلاء في ٢١ شباط ١٩٢٦ يقضي انه كان مدينا لزوجته التي طلقها (زح ج) وفي ذمته صداقها المؤجل وهو احدى عشرة ليرة، اجلت لاثنتي عشرة سنة، وانتهت المدة ومضى عليها اكثر من سنتين، وهو لم يؤد الصداق، وقد حكمت عليه المحكمة الشرعية في كربلاء بتادية المهر المؤجل البالغ بالروبيات (١٢٨) روبية وتسع اناث، وهذه الوثيقة تؤكد ما كان يعانيه عبود الكرخي وامثاله المخلصون للبلاد من مشة وعناء، وما كانوا يكابدون من حاجة وفقر، ولو كان من المداحين المنافقين لصبت عليه الاموال ونثرت قدامه الصلات واهديت له الجوائز – الخ).

وقبلها مر شاعرنا المرهف بتجربة حب مريرة، الحديث عنها يشوق القارئ ويستهوي السامع، فقد تعلق قلبه في صدر شبابه بفتاة اسمها (عذبة) بمعنى طيبة، كانت تسكن محلة (سوق الجديد) من كرخ بغداد، نافسه في حبها شاب من ابناء محلتها، اسمه (صالح)، فشاع خبر هذا الحب بين الناس، فاضطر اهل الفتاة الى هجر المحلة، والانتقال الى مدينة الهندية (طويريج) دفعا للمشاكل، فلما علم شاعرنا المتيم بذلك، اشتعل قلبه بنار الحب ومرارة الفراق، ولم يجد وسيلة للتنفيس عن المه غير الشعر ينظمه، ويتسلى به، ومنه هذه القصيدة التي تسيل رقة وعذوبة:

مع السلامة وبرشد هالنيه
يكلون حبي ساكن (الهندية)

ومنها:

اشوف معي، قط ما ينكص، يزيد
وعادة ينكص لان حبي بعيد
تهيج ناري من امر من (سوك الجديد)
واشوف بيت الترف كاسر فيه

وبنفس الوقت عرج على منافسه (صالح) والهبه بسياط نقده بقصيدة طويلة تقع في ٧١ بيتا، افرغ فيها كل غضبه وحنقه، لتسببه في ابتعاد حبيبته عنه، وحرمانه منها، هذه القصيدة تعتبر من الكواكب اللامعة في سماء الادب الشعبي، تكتفي بذكر مطلعها لانها تدخل في باب الشعر السافر المكشوف:

يا (صويلح) هذي اعمالك تره
بيها طيحة حظ واكلان الـ..

- في عام ١٩٠٨ اشترك مع بيت عارف اغا في انشاء شركة لنقل المسافرين بين امهات المدن العراقية، وكان وكيلا عام لها في بغداد، وكانت العربات الكبيرة التي تجرها الخيول هي الوسائط المستعملة عهد ذاك في النقل.

- ان لقب (ملا) لحقه منذ العهد العثماني بعد ان عرف بين الناس انه يجيد القراءة والكتابة، ويزاول نظم الشعر، وان اقدم وثيقة لدينا تحمل لقبه هذا هي ورقة تخمين حاصلات مزرعته السليمية / المحمودية المرقمة ٢١٥ والمؤرخة في ٣١ حزيران ١٩٢٢.

واشهر من عرف بهذا اللقب الملا عثمان الموصلي والملا عبود الكرخي والمقرئ الملا مهدي والملا بايز الذي تتلمذ على كتاتيبه في جامع الحيدر خانة الرصافي والكرخي، والملا مصطفى البارزاني، والملا علي الخصي وهو من رجال الوزير العثماني علي رضا باشا اللاز، الذي حكم بغداد من عام ١٨٣١ الى عام ١٨٤٣، وقد اشتهر بالبطش والظلم وكان الناس (يخوفون)

به اطفالهم ليهدأوا وينامو بقولهم : (إجاك ملا علي!؟).

وهنـاك اراء ثلاثة في تأصيل هذا اللقب، الاول يقول: اصله (مـولى) اي السيد وحذفوا الواو للتسهيل، اطلق علـى معلم الاولاد في الكتاتيب وعلى كل من يحسن القراءة والكتابة في العهد العثماني المظلم، ثم اصبح سبة وشتيمة، ويرى الصحفـي الراحـل المرحوم عبد القـادر البراك (١٩٢٣ – ١٩٩٥) ان الاصـح ان يكتب بالشكل الاتـي (مثـلا) اختصـارا لعبـارة (مـن لا نظير لـه)، وهكـذا كان يكتبه دائمـا، وفي العدد ٤٠١ مـن جريدة (الكرخ) الصـادر بتاريخ ٢٤ ايلول ١٩٣٧ اعلـن (الكرخي) عن حذف لقب (ملا) من اسمـه، فالتقـاه الرصـافي بعد ايـام في اروقة مجلس النواب وجرى بينهما هذا الحوار:

الرصـافي: انـك قـررت حـذف لقـب (مـلا) من اسمك؟

الكرخي: نعم يا استاذ!

الرصـافي: اذن، يجـب ان نطلـق عليـك بعـد الان لقـب (استاذ) فيكون اسمـك الاستاذ عبود الكرخي.

الكرخي: هذا لطف منكم يا استاذ الجميع.

الرصافي:

لا، لا ، انـت تستحق هذا اللقـب، خاصة وانني اول مـن بايعـك بامـارة الشعـر الشعبي، وفي شـارع المتنبي استوقفه صديقـه المحامي قاسم العلـوي وسألـه عن السبب، فاجابـه في الزمن الغابـر كانت الامية ضاربة اطنابها في العراق، والذيـن يحسنون القـراءة والكتابـة على عدد الاصابع ، ولهذا كان الناس يطلقون على المتعلم لقـب (ملا) تكريما له ولعلمـه، اما الان وبعد ان كثر المتعلمون واصبح التعليم الزاميا، فالمسألة اصبحـت معكوسة لدرجـة ان احد الاشخاص، لمـا ناداه احدهم بكلمة (ملا) ثارت ثائرته واقام ضده دعوى قذف في المحكمة، هكذا اصبح هذا اللقب ممتهنا، ولهذه الاسباب حذفت كلمة (ملا) من اسمي يا صديقي.

تقـول: ومثـل هـذا حصـل بالنسبـة الى كلمـة (افنـدي) فقد ذكـرت مجلـة (الف بـاء) بعددها المرقـم ٦٠٥ والمـؤرخ ٣٠ نيسـان ١٩٨٠ هـذا الخبر الطريف.

ردت محكمة جزاء بغداد / الرصافة دعوى قذف تقدم بها احد الاشخاص ضد احد المحامين لانه لقبـه بـ (افنـدي)، واعتـبرت كلمـة (افنـدي) لا تشـكل قذفـا ! وكانـت المحكمـة قـد انتدبت الاساتـذة احمـد حامـد الصراف ومهـدي مقلد وهـلال ناجي كخبراء فكتبوا تقريرا قالوا فيه: ان لقب (افندي) يعتبر من الالقاب المحترمة:

امـا لقب (الكرخي) فقد خلعـه عليه (الرصافي) بعـد عودة الاول الى بغداد، اثر انتزاع اراضيه الزراعية منه، من قبل (المستر اوستن) لاشتراكه في ثـورة العشريـن بعزمه وقلمـه، متقاسمين لقبـي جانبي بغداد، الكرخ والرصافة مناصفة. وكان شاعرنا في سورة غضبه واحتدام ثورته علـى الاوضاع الشاذة يرجع الى نفسه بوسعها تقريعـا وسخرية بالحـاق نعـوت قاسية بلقبه (ملا) وكالاتي:

(الكرخي) الغبي (ملا زبل)
من كل سياسة منعزل
لا تكول الكهرباء
غالي يا (ملا عزاء)
شوهدتك (ملا قرندل)
بالبريطاني المبجل؟
شبلشك يا (ملا ديزي)
بالسفير الانكليزي
شبلشك (ملا حبنتر)
بالبريطاني المستر
جوز يا (ملا سحاله)
ولا تكتب عن الحالة
بالكرخي يا (ملا خـ..)
طغار الشعير بقندره
يا مسكين يا مكرود
يا (ملا دلو) عبود
يا (ملا طبل) عبود
كوم اصبغ هدوم السود

عن كتاب مجالس بغدادية
الجزء الاول

توفيق سعيد الدملوجي

مذكـرات مرافـق الملك فيصـل الاول

ازهر العبيدي
باحث ومؤرخ

تعـد أسـرة الدملوجي مـن الأسـر الموصلية العربيـة العريقة من الشريفـات، سكنت هذه الأسرة الموصل منذ أمد بعيد بعد نزوحها من قرية (دملـوج) في اليمن. وظهـر منهم رجال سياسـة وقـادة عسكريون وأطبـاء كثيرون، منهـم الطبيب عبد الله الدملوجي الذي أشغل منصـب وزيـر الخارجية السعـودي في عهد الملك عبد العزيز آل سعود.

ومنهم رجال دين كانـت لهم منزلة سامية بين علمـاء الموصـل كالشيـخ مصطفـى والشيخ أسعـد، ووصل الشيخ عبد اللـه شمس الدين الدملوجـي إلى درجـة رئاسـة العلمـاء، ولـه مؤلفات دينية إسلامية عديدة.

وفي الكتـاب الموسـوم (العقيـد توفيق سعيد الدملوجـي والذكريـات) الـذي نشرته احدى دور النشـر فـي بـيروت سنـة ٢٠٠٠، يبتـدئ الضابط العقيد توفيق أحد أبناء هذه الأسرة الحديث عن طفولتـه في مدينة الموصل حيث ولد سنة ١٨٩٤، ثم دراسته الأولية عند (الملا) في محلتـه و(اللالاه) الإيـراني في بغداد بعد انتقاله للسكن مع أخيه الموظف عبد الله الذي نقـل من حلـب إلى بغـداد. وفي هـذه الرحلة ركـب (الكلك) الذي كان واسطة النقل المفضلة بين الموصل وبغداد. وكانت نقلية الحيوانات من خيـل وبغال وحمير تستخـدم في العودة من بغداد إلى الموصل.

ويتحـدث عـن التحاقـه بالمدرسـة الرشيدية العسكريـة سنـة ١٩٠٦ وهـو شـاب يانع، ثم دخوله الإعـدادي العسكري سنة ١٩١٠ حيث النظام والضبط العسكـري الصارم. وسفره سيراً على الأقـدام في رحلة شاقة أمدها شهر مع وجبة من الطلاب العراقيين إلى اسطنبول للدراسـة في الكليـة الحربية هنـاك، معقبين طريـق بغـداد – فلوجـة – الرمـادي ونهـر الفـرات حتـى دير الـزور ومسكنـة وحلب، وبعد استراحة ثلاثة أيام في حلب يستمرون في السير إلى الاسكندرونة وأدنة حيث رأس السكـة الحديـد في محطة قـرب أدنـة والتي توصلهم إلى اسطنبول.

وفي تركيـا يشعـر بالتمييـز العنصري الذي بثته الأحـزاب الطورانية بعـد الانقلاب سنة ١٩٠٨، ويشهـد اندحار الجيوش التركية في حـرب البلقـان وهو لا يزال تلميـذاً في الكلية الحربيـة. وانتسـب إلى حزب العهـد المعادي للسياسة التركية والحكـم الاستبدادي للبلاد العربيـة. وهـرب خـلال وجـوده في الكليـة أخـوه الطبيـب عبـد الله الـذي كان يعمل في أحـد المستشفيـات التركية إلى مصـر ثم إلى السعودية ليصبح الطبيب الخاص للملك عبد العزيز آل سعـود الذي عينه وزيراً للخارجية بعد أن استولى على الحجاز.

وعنـد قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ أنهيـت الدراسـة في الكليـة الحربيـة، ووزع الطـلاب علـى الوحـدات برتبة نائـب ضابط تحت التجربة لمـدة ستة أشهر يرفعون بعدها إلى رتبـة مـلازم ثان. وعـين الدملوجـي آمر فصيل في القوة السفرية الأولى (تعادل فرقة مشـاة) التـي كانـت في طريقهـا إلى العراق. وبعـد وصولهـا إلى الموصل عـن طريق حلب سيراً على الأقدام صدر الأمر بتغيير اتجاهها إلى راونـدوز لصـدّ هجوم الجيـش الروسي الذي دخل الحـدود العثمانية. وتمت ملاحقة القوات الروسية التي اتخذت موضعاً دفاعياً داخل الأراضي الإيرانية على طريق خوي – تبريـز، وجرح اثر معركـة خاسرة تفوق فيها الجيش الروسي.

ثم تحدث عن مشاهدتـه لمأساة تهجير الأرمن مـن وان وبتليـس وحرق قراهـم والفتك بهم بصـورة بشعة غـير إنسانية، ممـا اضطرهم للجـوء إلى حلب والموصـل وبغداد. والتحق بعـد شفائـه في حزيـران ١٩١٥ إلى وحدتـه غربـي بحـيرة وان حيـث أبلـى بـلاءً حسناً ورفـع إلى رتبة ملازم ثان، لكنّ ظروف القتال تتطـور إلى غير صالح الأتـراك فيصدر الأمر بالانسحاب تحت ضغط الروس، فيقع أسيراً مع عـدد من الضباط والجنود. ويرسلون في عربـات مكشوفة تجرهـا الخيـل إلى أريوان عاصمـة أرمينيـة، ومنهـا بقطار بطـئ إلى سيبريـا تلك المنطقة التي يخاف حتى الروس من ذكر اسمها.

وفي معسكـر الأسر يعاني الأسـرى الأمرين في ظروف جوية تنخفض فيها درجة الحرارة إلى (٣٧) درجـة مئويـة تحت الصفـر في الشتاء، وتجد خيوطـاً من الجليد قد تجمدت تحـت الأنف وحبوبـاً من الجليـد في أهداب العيـون. وترتفـع الحـرارة في الصيـف إلى (٢٠ – ٢٥) درجـة مئوية. ويبلغ طول النهار في الشتـاء أربع ساعـات، وفي الصيف (٢١) ساعـة. وكان في ذلـك إشكال كبـير لصائمي شهـر رمضـان الذين استشـاروا رجال الدين المسلمـين في سيبريا فأشاروا عليهم بالصوم حسـب التوقيتـات مـن الساعـة السادسـة صباحـاً، ويفطـرون في الساعة السادسة بعد صلاة المغرب وإن كانـت الشمس ما زالت في وسط السماء.

كان معسكر الأسر أرحم من معسكرات الأسر الإيرانيـة فقـد كان الضابـط الأسـير يقبض مـن (٥٠ –٦٥) روبل راتباً شهريـاً لمصروفه اليومي، وكانـت الصحف الألمانية والروسية والفرنسية تصل إلى المعسكر، وكان الأسرى يطلعون علـى أخبار جبهات الحـرب وعلموا بثـورة الحسـين بن علـي في الحجـاز، فكان عليهـم أن يرتبوا أمر هربهم مـن الأسر الذي كان بحكـم المستحيل بسبب شدة الحراسات حـول المعسكـر. وتهيـأت الفرصـة بعـد قيام الثـورة الروسيـة في ت١ ١٩١٧ ونشـوب القتـال بـين الجيشـين الأحمـر والأبيض، فكانـوا يخرجون إلى المدينـة دون أن يمنعهم أحـد بعـد تـرك الحراس لواجباتهـم وإلقاء السـلاح. وكلف الدملوجـي للهرب والاتصال بأحـد القناصل الإنكليز ليرتب أمـر سفرهم وإلحاقهم بالجيش العربي.

ووصـل الدملوجي بعد عنـاء وجوع وخوف إلى القنصـل الإنكليزي في (فلاديفو ستوك)، وبعد اتصـال القنصل بدولته رتـب أمر سفر الجماعـة بواسطـة البحر إلى الصـين ومنها إلى أمريـكا وبريطانيـا في رحلة طافت حول العالم. وتغيرت في لندن أحوالهم المزرية من لباس وطعام ومنـام، وتم إسكانهم في فنادق لم يألفوهـا سابقـاً، ومنحـوا رواتـب شهرية بمعـدل (٥٠) باونـد لـكل منهـم. وفي لنـدن التقـى الدملوجي الملك فيصل الأول ولورنس الـذي وصفه بالكـذاب وعميـل الاستخبارات البريطانيـة، وطلـب نـوري السعيـد المرافق للملـك منهم أن يلتحقـوا بالجيش العربي في الشام فوصلوها في ١ ت٢ ١٩١٨.

وفي سوريـة عـين الدملوجي مرافقـاً لجعفر باشـا العسكري المفتش العام للجيش العربي بعـد ترقيته إلى رتبة ملازم أول ، وعندما نقل جعفر باشـا إلى منصب الحاكم العسكري في حلب نقل معـه مرافقاً أيضـاً. ولكنه أسر بعد سقـوط سوريـة بيـد الفرنسيـين ونفـي إلى جزيـرة أرواد، وأعيد مع العراقيين في الشام إلى العـراق في أوائـل آذار ١٩٢١ عن طريق البحر من الإسماعيلية إلى البصرة.

وفي الفصـل الرابـع والأخيـر مـن الكتـاب يتحدث المؤلف عن تعيينه مرافقاً للملك فيصل الأول بعـد تتويجـه ملـكاً للدولـة العراقيـة، وكان الملـك الذي لا يـوده بسبب عمـل أخوه مـع الملـك عبـد العزيـز، فمنعـه مـن الـدوام في كليـة الحقـوق ثـم أمـر بنقله بعـد حادثة أزعجـت الملـك. فأرسـل في دورة هندسيـة إلى بريطانيـا، ثم عاد إلى العـراق بعد سفرة طويلـة زار خلالها باريـس وفينا وبودابست وبلغراد وأثينـا ومصر وفلسطـين والأردن. وكانت هذه الفترة مثاليـة في تاريخ الجيش العراقي، إذ شهـد ضباطه حالة من الاستقرار والرفـاه، فأرسلـوا للاشـتراك في البعثـات والـدورات الخارجيـة، والإلتحاقـات في الجيوش الأجنبيـة، والزيـارات لجيوش الدول الأخرى، وتمتعوا بالإجازات السنوية والسفـر خلالهـا مـع أسرهم خـارج العراق. كل هـذه المميـزات حرم منها ضبـاط الجيش العراقي بعـد الثورات والانقلابـات المتكررة وطغيان ظروف عدم الاستقرار السياسي.

وبعد عـودة الدملوجـي من لندن عـين معلماً للهندسـة في المدرسـة العسكريـة، لكنـه نقل بسبب عـدم احترامـه للكابـتن نيـك ناظـر المدرسـة. فالتحق سنة ١٩٢٦ بعد ترقيته إلى رتبـة رئيس (نقيـب) إلى منصب ضابط ركن المنطقـة الشماليـة في الموصـل حيث مسقط رأسه وأسرته. ونقل بعد زواجه وترقيته إلى رتبـة رئيـس أول (رائـد) إلى منصب ضابط ركـن الميرة والتموين في بغـداد سنة ١٩٣١، وألحق إلى دورة الميرة والتموين في الجيش الهندي بسبب كفاءته في عمله الإداري. وعاد من الـدورة وهو برتبة مقـدم ليشغل منصب معـاون مدير الميـرة والتموين سنـة ١٩٣٢. ثـم دخـل دورة الضبـاط الأقدمـين في كليـة الأركان، وشهـد خلالها عندما كانـت الدورة في الموصـل أحـداث حركـة الآثوريين، وقدم تقريـراً يؤكد فيه مشاركة السلطات الفرنسية في الأحـداث بقيامهـا بتحريض الآثوريـين في سوريـة وتزويدهم بالسـلاح والمعلومات الاستخباريـة، ودفعهـم للهجوم علـى مواقع الجيش العراقي.

ولغرض الترقيـة عين بمنصـب آمـر الفوج السادس عشـر المشكل حديثـاً في الموصـل سنة ١٩٣٥، وأصبـح هذا الفوج باسم الفوج الثـاني لواء الملكـة عالية (اللـواء الخامس). ثـم عـين آمـراً للـواء نفسه بعـد ترقيتـه إلى رتبـة عقيـد في ٨ أيلـول ١٩٣٦. وفي ٣١ آب ١٩٣٧ عـين آمـراً للمدرسـة العسكريـة التي غـيرت تسميتها خـلال أمرته وباقـتراح منه إلى كليـة باسـم (الكليـة العسكريـة الملكية)، وأصبحـت شهادتهـا مماثلة لشهـادة الكليات العراقيـة الأخرى. عين بعدها مديـراً لمديرية الميـرة والتمويـن في ١٥ شباط ١٩٣٩، وهذا المنصب يعـادل منصب معـاون رئيس أركان الجيـش الإداري. وظـل فيـه حتـى إحالتـه علـى التقاعـد في ٥ أيلـول ١٩٤٠. وتـوفي العقيد المتقاعـد توفيق سعيـد الدملوجي في ١٨ ك١ ١٩٨٣ في بغـداد ودفـن في مقـبرة الكرخ.

مقاهي بغداد والقصة خون

د. نوري حمودي القيسي
باحث اكاديمي راحل

على كتف ترابي من اكتاف محلة عريقة في بغداد هي محلة (الفضل وخان لاوند) تستقر محلة قديمة توصل بين محلة العزة والاطراف المحيطة بها بمحلة المهدية والشيخ حديد والفضوة وبقية المحال التي تحيط بمدينة بغداد من جانبها الشرقي والمتناثرة على هذا الجانب لتشكل امتدادا لحمايتها، وحدودا لاطرافها، ويبدو ان هذه المناطق والتي سكنتها قبائل عربية بقيت اسماؤها ملازمة للمحال التي عاشت فيها مثل (العزة) و(الكروية) و(البو داغر) و(البو مفرج) و(العبيدات) وغيرها من اسماء القبائل العربية او بعض بطونها كانت قد استوطنت ظواهر بغداد لاسباب سياسية او اجتماعية او اقتصادية وبقيت هذه القبائل تؤدي دورها الاجتماعي في التكوين العام لمدينة بغداد، وظل هذا الواقع معروفا في بغداد حتى فترة متأخرة، وبقى ابناء هذه المناطق يمارسون اعمالا مهنية تختلف عن الاعمال التي يؤديها ابناء المناطق الاخرى التي تحيط بدوائر الدولة، لان الطبقة التي كانت تحكم قبضتها وتسير امور الدولة تسكن تلك المحال التي عرفت عند اهل بغداد كمحال (العصملي) مثل الحيدرخانة والسراي ورأس الكنيسة ونجيب باشا، وجديد حسن باشا والطوب والميدان وغيرها من المناطق المجاورة لها، وقد شغل ابناؤها الوظائف الادارية والعسكرية والقضائية والتعليمية، اما ابناء ظواهر بغداد فقد انصرفوا الى ممارسة المهن الحرة واعمال البيع والشراء..

تلك المحلة القديمة هي محلة السيد عبدالله وهي تسمية ترتبط باضرحة دفنت في هذه المحال، والسيد عبدالله. كما نقش شاهد القبر هو حفيد من احفاد موسى الكاظم عليه السلام، ولم تكن محلتي هي المحلة الوحيدة التي شهرت باسم ضريح دفن في ربوعها، فهناك محلة (الشيخ حديد) و(امام طه) و(ابو سيفين) و(الفضل) و(باب الشيخ) و(الشيخ بشار) و(الشيخ عمر) وعشرات المحال التي نشا ابناؤها في ظل هذه التسميات، ووجدوا في هذه المزارات اخبارا كثيرة زخرت بها ذاكرة الكبار والصغار، وحفلت بها الاساطير المدوية عن (الطريق المسكون) وقد ارتسمت على الشبابيك الحديدية او الابواب الخشبية اصابع الناس وهم يحيطونها بالخضاب، ويشدون على مقابضها الحديدية اكداسا من القماش الاخضر تبركا وتشريفا..

كانت محلة السيد عبدالله تمثل حلقة اتصال بين صنفين من الناس جمعتهم ظروف معاشية واحوال اجتماعية واقتصادية. فغالبا ما نجد فيها الموظف الاداري الذي تسلق درجة ادارية او الضابط الذي استطاع الوصول الى رتبته بعد سفرة طويلة الى (استانبول) "الاستانة" كلفته وعائلته المال والوقت والمغامرة.. وقد انعكس هذا التراتب الاجتماعي في المحاور التي كانت تتوزع منها هذه الطبقات وهي تتجه الى اعماله او تصرف شؤونها او تمارس اسلوب حياتها ونمط علاقاتها.

فهي تتصل من جهتها الغربية بالمحلات التي تؤدي الى دوائر الدولة والمحال المحيطة بها ومن الجهة الشرقية بظواهر بغداد (جانب الشيخ عمر حاليا) وتنحدر بها ومن الجهة الشمالية لتصب في مناطق (خان لاوند والعزة) اما حدها الجنوبي فيتصل بمحلة المهدية وبقية المناطق التي تنتهي الى شارع الكفاح وساحة السباع الحالية.. ومن الغريب ان ابناء هذه المنطقة قد صنفوا الى مجاميع اتخذ كل صنف منهم طريقا يسلكه او دربا يقضي به الى قضاء شؤونه وربما اصبح السير في هذه الدروب عادة لهم.

وقد اتخذوا اصدقاءهم من ابناء تلك المحال، وجعلوا مواقع تجمعهم في احد مراكزها، كما تأثروا بعادات ابنائها التي تختلف الى حد ما عن بقية العادات المعروفة داخل المحلة . اما هواياتهم فقد اتصفت بهذه الصفات، وتأثرت بتلك الاهتمامات، الى جانب التصنيف المهني الذي وحد بعض المجموعات لتتحرك وفق صورة واحدة وتتاثر بمعطيات واحدة..

انها كانت تمثل مجتمعا له خصائصه، وتكوينا له حالاته وعوامله وله معطياته التي بقيت تنحت في هذه المحلة بصورة متميزة، وهنا لابد من الاشارة الى ان هذه المحلة كانت ملاذا لكثير من العوائل التي وصلت مياه الفيضان الى دورها بسبب ارتفاعها عن المستوى العام لتلك المناطق في اخر غريق تعرضت له بغداد في بداية هذا القرن، وقد ابدى اهلها انسانية وفتحوا بيوتهم لكل الاخرين الذين ارعبتهم امواج النهر وهي تتدفق الى دورهم.. وقد تركت هذه المبادرة الانسانية احساسا اخويا لدى الناس فشدت اواصرهم، واحكمت تماسكهم، ووصلت ما انقطع من اسباب تباعدهم..

قد وجد الناس في هذه المناطق سلوتهم في المقاهي الخاصة التي كانت تقرأ فيها القصة، وهي مقاهي تناثرت حول الاطراف القريبة وقد اعتاد الناس ان يسمعوا قصة عنتر او قصة ابي زيد الهلالي، وهما قصتان تحكيان الجانب البطولي، وتعبران عن الذات الكامنة، وتجدان في نفوس الابناء هوى تتحرك له النوازع وتستثار في تكريم قيمة هواجس دخيلة، عرفت في هذه الاخبار طريقها.. ومن هناك كان الاتجاه السائد لدى الابناء لمتابعة هذه القصص، والانشداد اليها انشدادا نفسيا ومناقشة احداثها مناقشة ترتبط بالسلوك العام الذي يتحكم في ضوابطهم، ويحرك وجدانهم.. ولانهم عرفوا فيها الموقف الصريح والمدافع عن كيانهم الاصيل والمتمثل في حضور البطل وانتصاره وسقوط كل الاعداء الذين حاولوا ان يوقفوا التيار العربي، او يضعفوا من قدرات المقاتل، أو ينتزعوا الخصال الكريمة التي عرف بها، والسيرة بكل اشكالها محاولة لمعالجه بعض بعض المشكلات التي ترضي هؤلاء الناس، وتتجاوب مع مشاعرهم وتعبر في كثير من احداها عن وجهة نظرهم.. ان هذا الانقياد المباشر وراء الاستمتاع بهذه القصص لم يحل دون التفسيرات الساذجة التي كانت تنطلق من افواه الناس بعد كل يوم يقفون فيه على حادثة تستثير فيهم نزعة المناقشة، وتعمق في وجدانهم صورة الاحساس بالتواصل..

فالسيرة بكل اطرافها كانت توحي لهم بمجموعة من المعتقدات التي يستغربون من وقوعها، او يقتنعون بتفسيرها محاولة في تطويع الحدث، واخضاع الوقائع لما يناسب تفكيرهم، ولكنهم كانوا يستشفون من وراءها ما كانت تطويه من تغليف الاتجاهات وتثبيت بعض مظاهر العصبيات وتبرير اوضاع لا تتناسب مع الحس القومي الذي بدأ يتعالى في شعورهم الذاتي، وانها كانت تعمل في نفوس الناس عملها السياسي لانها تتحدث في بعض جوانبها عن الصراع السياسي بين العرب وغيرهم وبهذا كانت تعبر في حالاتها عن الاحساس المتراكم، وترسم المخرج الواعي لكثير من المشكلات السائدة.. وقد احكمت السيرة صياغة الرجال الاشداء الذين ايلوا في الحروب البلاء الحسن، ونفحوا السيرة باعمال اخلاقية جليلة، واضفوا على احداثها اصداء انسانية شاملة، رفعت اقدارهم في السياق القصصي الذي عاش في الوجدان العربي، وانطلق في التصورات الشعبية التي تلمس امالها في المحتوى الكبير الذي كانت تتحرك السيرة حوله..

واستطاعت السيرة ان تقدم المجتمع الذي يعطي الخير اكبر اهتماماته، ويولي النجدة في اروع اشكالها، ويقدم الرأي الحكيم في احسن حالاته، محاولة ان تبعث في المجتمع بعثا جديدا مظاهر تعلو فيه الحياة، وتعطي حركتها الدفق الحركي المستمر ليظهر وقد اكتسب اللون المشرق ويحافظ على السمات التي عرف بها، ويقوم ما وجده منها بحاجة الى تقويم ، وهنا كانت السيرة درسا فروسيا واخلاقيا متميزا، ياخذ منه الرجال والشباب والفتيان، يشعرون باهليته، ويتأثرون وهو يتابعون السرد الرائع لبنائها، بما يثير في نفوسهم الرغبة للاقتداء بالصورة الكريمة، والنموذج الاخلاقي، والخصال الحميدة، فتطبع بها اعمالهم ، ويتأثر بمجرياتها سلوكهم، وتكتبر في اجوائها ورة المجد الذي يجسده البطل في السيرة..

كانت هذه المعاني تتسرب الى قلوب المستمعين الذين تعودوا على الجلوس في مجموعة المقاهي المتناثرة حول هذه المحال.. ففي المقهى المجاور لخان (بيت نهر) وهذه لا افطن عليها ولكنني سمعتها من اخوتي الكبار، قرب موقع مدرسة الفضل الحالية كانت هناك مقهى يقرأ فيها (ملا عبد) قصة (الزير سالم) وكان الناس يتحلقون فيها ويأخذون مواقعهم وفق التقاليد التي القوها في مثل هذه المقاهي، وكانوا يباشرون الجلوس فيها والتعامل مع اساليبها بموجب اشكال التي ظل الطابع العام يتحكم فيها، وفي مقهى ابراهيم (الاعضب) العزاوي في (خان لاوند) يقرأ (الملا علوان) الغضبة الهلالية، ود استمعت اليه طوال ثلاث سنوات وفي الفترة المحصورة بين ١٩٤٣ – ١٩٤٦ وكانت نبرات صوته وهي تترنم بالشعر، وتنشد القصيدة، وتغلوا عندما يحتاج الموقف الى حماسة، وتهدأ عندما ينساب الحديث رقيقا وهادئا، وقد انتصب كرسيه ووضع (اللوكس) الى جانبه وو يتوهج نورا ابيض وصوتا رتيبا يطبق على السكون الحائل الذي تبدده عجلات عربة عائدة بعد انتهاء عمل يومي مجهد.. وكان صاحبها يعرف تقاليد هذه المقهى، ويحرص على سلامة الهدوء المحيط بجوها البطولي، ويحفظ للمستمعين اهتمامهم.. وقد اعتصب الملا في ايام الشتاء الشتاء الباردة (بيشماغين) احدهما غطى به راسه والاخر استدار به ليمنح حركت ويثبت به هيئته ويدفع عنه لذعات البرد الحادة..

وفي (قهوة حوري) كانت (قهوة سكران) متخصصة بقراءة قصة عنترة وقد تولى

قراءتها (ملا خليل)، وقد اتخذت مكانها في الزاوية المقابلة للمخزن الكبير الذي كان يطلق عليه (التنبلخانة) وهي موقع مستشفى الطوارئ الحالية، وقد اعتاد على زيارتها ابناء المحال المختلفة، ومن الشباب خاصة، لانهم كانوا يجدون في سلوك هذه السيرة توجها متوافقا لنوازعهم، وانسجاما حيا مع رغباتهم في الاداء البطولة والتواصل التاريخي، وتنيمة الاستعداد الذي عاشت عليه تلك المناطق وعرفته ايامها العزيزة.

وفي قهوة (ابراهيم سباتي) قرب خان مشعل كان (ملا نصيف) يقرأ سيرة عنتر – تارة وسيرة ابي زيد الهلالي تارة اخرى، وربما كانت وجوه رواد هذه المقهى تتغير بين فترة واخرى وفي اطار التغيير الذي يحقق لهم الرغبة، وقد اعتاد اصحاب هذه المقاهي ان يستقبلوا وجوها معروفة ، وان هذه الوجوه كانت لها مقاعدها المحجوزة، وان الشخص الغريب تعرف هويته منذ اللحظات الاولى لارتياده بسبب التقاليد السائدة والاعتبارات المعروفة.

اما (ملا حميد) وهو من ابناء محلتنا (السيد عبد الله) فكان يقرأ في قهوة خليل بمحلة (قهوة حوري) سيرة عنترة وكنت اتلمس تأثره بشخصية عنترة وبفروسيته في سلوكه وصوته الاجش وتعامله مع الاولاد في تلقينه لهم القرآن والكتابة.. وكان هؤلاء الاشخاص الذين اقترنت حياتهم بحياة اصحاب السيرة يستأثرون باهتمام الناس، وينالون احترامهم وتقديرهم، لاسباب كثيرة، وكان يشار اليهم عند مرورهم او حضورهم او تعرضهم لما يوجب الاهتمام بهم..

ومن الطبيعي ان تكون هذه المقاهي ذات طابع متميز فصور اصحاب السيرة تملأ جدران المقهى، وفي اوضاع مختلفة، تحكي بطولتهم، وتظهر قدرتهم وشجاعتهم، وقد بانت وجوههم وامتدت شواربهم وانتصبت خيولهم، وخذل خصومهم او سقطوا ارضا، والرماح في ايديهم مشرعة او السيوف مشهورة، اما الترس فكان سلاحا اخر يتقى به الابطال ضربات خصومهم.. وكانت هذه الصور تمثل وجها طبيعيا وجانبيا يستكمل فيه الجو النفسي والاجتماعي لهؤلاء المعجبين الذين يتطلعون اليها باعجاب، ويحللون مواقفها بدقة، ويستذكرون ايامها بحسرة. اما اللعب التي كانت تؤدي فيها فهي على الاغلب (المنقلة) او (الدومنة) وقليلا ما تكون وهي خالية من (الحاكي) او جهاز الراديو الذي دخل بعض المقاهي، وينهمك العمال في هذه المقاهي بادخال المقاعد في الليل واخراجها عصرا في موسم الصيف بعد ان تهيء الاماكن وترش الدروب، وتوضع المراوح وتفرش الحصران، وتختلف الصورة في رمضان المعظم حيث لا يجلسون الا بعد انتهاء صلاة العشاء، وبعد انتهاء صلاة التراويح حيث تعطر المجالس بذكر الله، ويستمر المتحدث الى ما قبل السحر.

ان الجو الذي يسود هذه المقاهي يختلف عن اجواء المقاهي الاخرى لانها تعتمد الصمت، وتحفظ للناس ما يرغبون تحقيقه حتى يصبح الشارع الذي تستقر فيه هذه المقاهي في ليالي الصيف خاليا، لا يعكر هدوءه متجاوز، ولا يذهب روعته وعذوبته مخالف وقد احتفظت بطابع خاص يمارس منذ اللحظات الاولى لمباشرة الرواد حيث تهيء المقاعد، وتوقد (الفوانيس) (اللوكسات) استعدادا لاستقبال القادمين الذين حددوا اوقات وصولهم والتزموا بها، كما حددوا مواقعها، وكان العريقون منهم ينتحون ناحية (الملا) وقد علتهم علامات الاستبشار، واستبدت بهم نزعة الاستماع لمتابعة الموقف الحرج الذي وضع فيه البطل او من يقف الى جانبه، وكانت التعليقات المختلفة ترتفع من الجالسين وهم يتعصبون لواحد قو لا يكون البطل او لواحده قد لا تكون محبوبة الفارس، وكلما اقتربت البداية ازدحمت المقاعد، وعلا الضجيج، واشتدت حدة المناقشات.. ومن التقاليد التي تعارف عليها الرواد في هذه المقاهي هي تناول الاطعمة والمكسرات قبل البداية وهم يطوفون دروب المقهى، ويوزعون ما عندهم، وتبقى الانظار مشدودة الى المكان الذي يظهر فيه (الملا) وقد نابط الجزء الخاص عن السيرة.. وهو يضرب باقدامه الارض، وقد تعلق بصره بالمقهى ليتفحص الشخوص الذين اعتاد على رؤيتهم ومع تقارب خطواته تبدأ الاصوات بالخفوت، ويأخذ الجالسون اماكنهم باعتدال تهيئا لاحتواء المواقف الجديدة، واستعدادا لاستيعاب الادوار التي تفاجأهم بها السيرة، ويبتعد الجالسون لاستقبال (الملا) ويفسحون له المجال القريب من الكرسي المرتفع، ويظل الجالسون يرقبون اللحظة التي يعلن فيها صاحب المقهى بصوته الجهوري ونبرته الحادة (صلوا عالنبي) وعندها يعم الصمت، ويسود جو من الترقب لياخذ (القاص) دوره في البداية، وينطلق (الملا) وهو ينغم قراءته، ويرتل اخباره، وينشد اشعره وتظل القلوب مشدودة الى الاحداث المتسلسلة والقارئ يسرد الوقائع وحركات الوجوه تتغير، ومواقع الاشخاص تتبدل والمتابعة الحادقة والترصد المنفعل يطبق على اولئك الذين امتلك حب السيرة قلوبهم.. وبعد سرد يقرب من الساعة ينطلق صوت صاحب المقهى وبشكل حاد ليقطع المتابعة، وينهي مرحلة الاهتمام الانفعالي وهو ينادي (جاي للملة) وهي اشارة تدل على فترة الراحة التي تسترد فيها الانفاس ولترتسم علامات الراحة او الغضب، وتظهر انفعالات الموقف الحاسم الذي قطعه صاحب المقهى ليعطي (الملا) مهلة استرداد النفس، واحتساء الشاي الخاص، وليترك للباعة الذين احاطوا بالمقهى فرصة المناداة عن بيعهم وهي عروض تختلف باختلاف الفصول، اما (الحب) فهو البضاعة الوحيدة التي تبى مرغوبة في كل الفصول.. ولم تكد تنقضي الفترة التي تتراوح بين العشر دقائق والخمس عشرة حتى يعلن المنادي وبنفس الصوت والنبرة (صلوا عالنبي) لتعود السكينة الى الوجوه، وليخيم الصمت على الجو العام الذي يحيط بالمقهى والناس والشارع، ويباشر (الملا) باكمال الحديث، وهو يعطي كل موقف حقه من التعبير، ويرسم لكل حالة صورتها الانسانية ليحرك عواطف الجمهور المستمع، ويحفز فيهم الرغبة لمواصلة المتابعة والاستماع. وتذهب اللحظات سريعة ليصل الوقت الى الساعة التاسعة والربع تقريبا ليقف (القارئ) عند الحدث المتأزم، واللحظة الحرجة، والموقف الذي يشد المتلهفين وليعلن مع هذه النهاية (جاي للملا) ومعه يختتم.. (الملا) حديثه بعبارة (وبات الكلام الى غد) وينفرط عقد المجتمعين ليتوزعوا جماعات تأخذ طريقها الى الدروب المتفرعة، وهم يستعيدون ذكر بعض الاحداث التي دارت حولها الحلقة الاخيرة، وكثيرا ما كان الجدال يحتدم بين المتخاصمين ليقضي الحوار الى نزاع كلامي حاد، او مشاده تنتهي الى ان يترك كل واحد صاحبه لتظل احلام المعارك او وقع السيوف او تشاجر الرماح يرن في اذانهم ليعودوا في اليوم الثاني الى الاستماع الى حلقة جديدة.

لقد عاش الناس ايام هذه المدارس الشعبية، وهم يتمتعون بافراد التاريخي، ويتأثرون بالصورة البطولية المتقدمة، ويحللون وقائع الايام بما يناسب الصورة التي بقيت مفرداتها عزيزة عندهم، فتركت لهم من الزاد الثقافي والقيم النبيلة، والمحامد المأثورة ما ظل يرفد ثقافتهم ويغني حياتهم فهي مدرسة ثقافية حافلة، وتوجه فكري اخذ دوره في وقت كان الجمهور يتلوى تحت اسباب القهر، ويقاوم جبروت التسلط ويتحدى عوامل التخلف التي استطاع عبورها من خلال اهتمامه التراثي ووعيه الحضاري الرائد.

مجلة التراث الشعبي 1984

معركتا الجسر

محمود الدرة

معركتان في تاريخ العراق القديم وفي تاريخه الحديث تحملان هذا الاسم، وفي كلتيهما استشهد المحررون وانكسروا.. وكانت نتائج كلتيهما نصرا حاسما على الظلم والاستعباد.

وعلى الرغم من البون الشاسع بين معركة الجسر التي خاض غمارها ابو عبيدة بجيشه العربي لانقاذ العراق، وبين معركة الجسر التي خاض غمارها فتيان وفتيات بغداد في كانون الثاني سنة ١٩٤٨ فلقوا حتفهم على الجسر وحواليه فان هاتين المعركتين قد التقتا في الغرض وانتهتا الى نتيجة واحدة.

فابو عبيدة قائد الجيش العربي الذي ارسله الخليفة عمر لانقاذ العراق وتحريره من الاستعباد الفارسي ناضل بجيشه في معركة الجسر على الفرات نضال الابطال جيشا يفوقه اضعافا فخسر المعركة بتضحيات جسيمة مؤلمة ولكنها على اي حال كانت النتيجة اللازمة لمعركة القادسية الحاسمة التي تحرر على اثرها العراق باجمعه من النير الاجنبي، وفتيان بغداد وفتياتها – وقد ثاروا على معاهدة البارجة "النصر" التي وقع فيها المفاوض العراقي صك استعباد بلاده للسيطرة البريطانية، وناضلوا ما وسعهم النضال على دحر ذلك النصر البريطاني المبين قد خروا صرعى على بلاط الجسر وحواليه برصاص البنادق والرشاشات.. ولكن ادماءهم المسفوكة هذه قد ارهبت الظالم المستبد فدحرته في النهاية، وهزمته هزيمة منكرة فشيع جثمانالسيطرة البريطانية التي كان يحلم الانكليز بدوامها على العراق الى جانب تشييع اجداث فتياتها المغاوير جنبا الى جنب. وهكذا يكتب تاريخ الحرية في كل مكان وزمان.

لاريب في ان معارك كانون الثاني لسنة ١٩٤٨ في بغداد لم تكن معارك فنية تشبت بين فريقين متكافئين في العدد والعدة، كما لم تكن كذلك معارك الثورة الفرنسية او غيرها من معارك التحرير، ولكن نتائجها كانت بالتاكد اعظم من نتائج الاف المعارك التعبوية التي نشبت في التاريخ وزهقت فيها الاف الانفس من الناس، لقد ايقظت معارك كانون الثاني في بغداد الضمير العراقي من غفوة خشي ذوو الراي ان تكون القاضية على كيان العراق لاجيال عديدة، وحسبهم في تقديرهم هذا ما فعله الاجنبي واعوانه طيلة ربع قرن او تزيد من ظلم واستبداد وفوضى واستهتار بالمسؤولية وما الى ذلك من وسائل الافناء. ولهذا فتاريخ العراق سيسجل معركة جسر الشهداء ومعارك شارع الرشيد وساحة السويدي وباب المعظم وموقعة المستشفى كحدث ذي شأن في تاريخ الشعب العراق ونضاله من اجل استكمال حريته واستقلاله.

عن مجلة الوادي 1952

لقطات نادرة لبعض المراقد والجوامع في مدن العراق

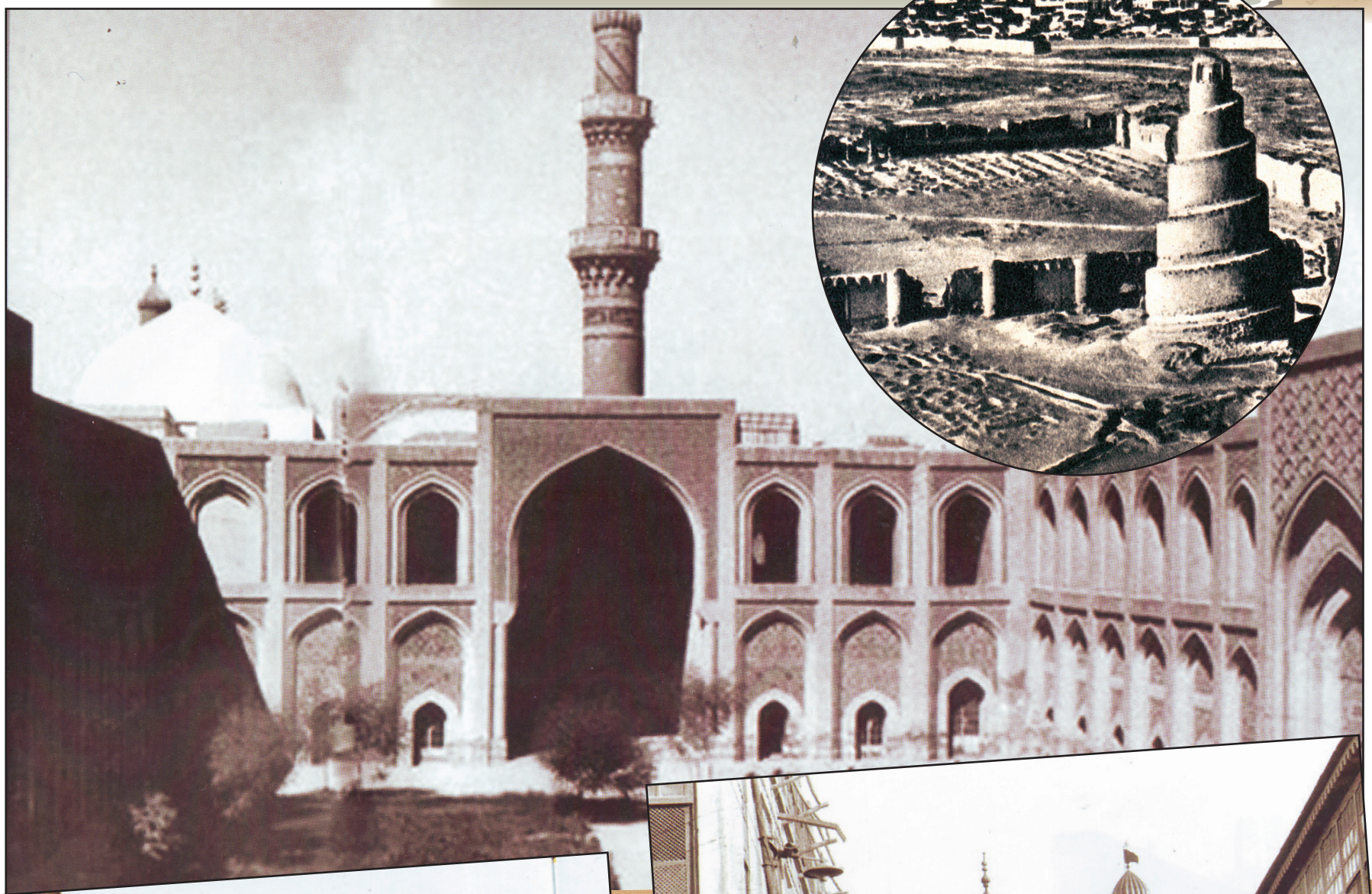

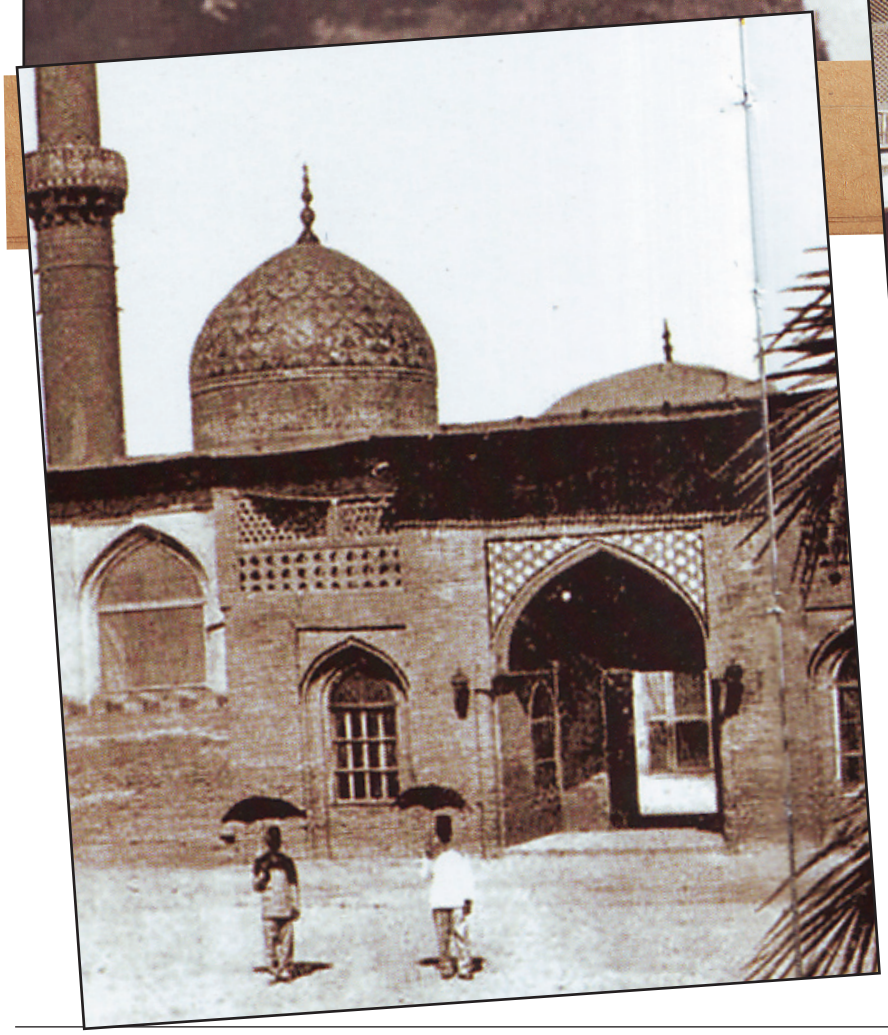

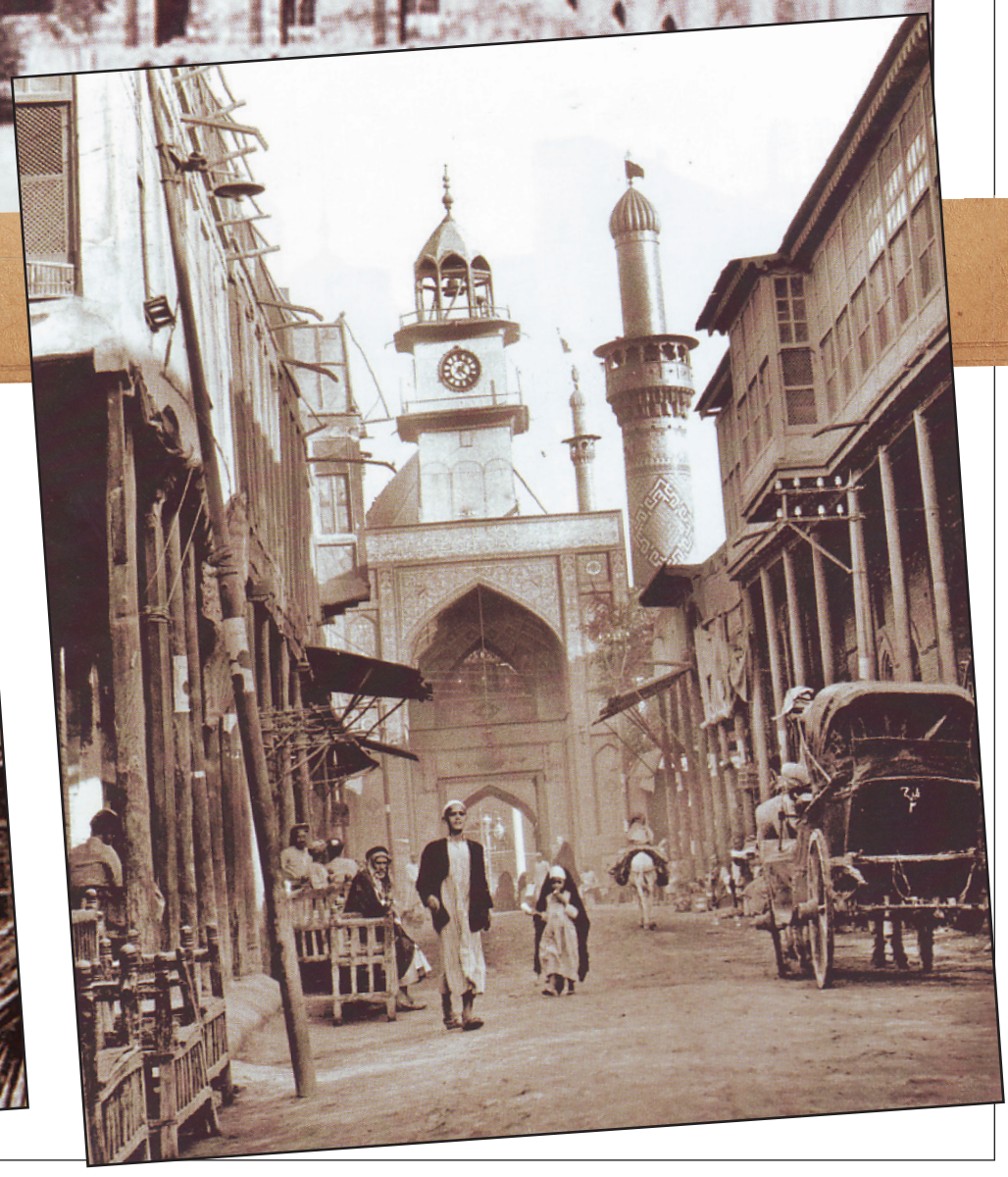

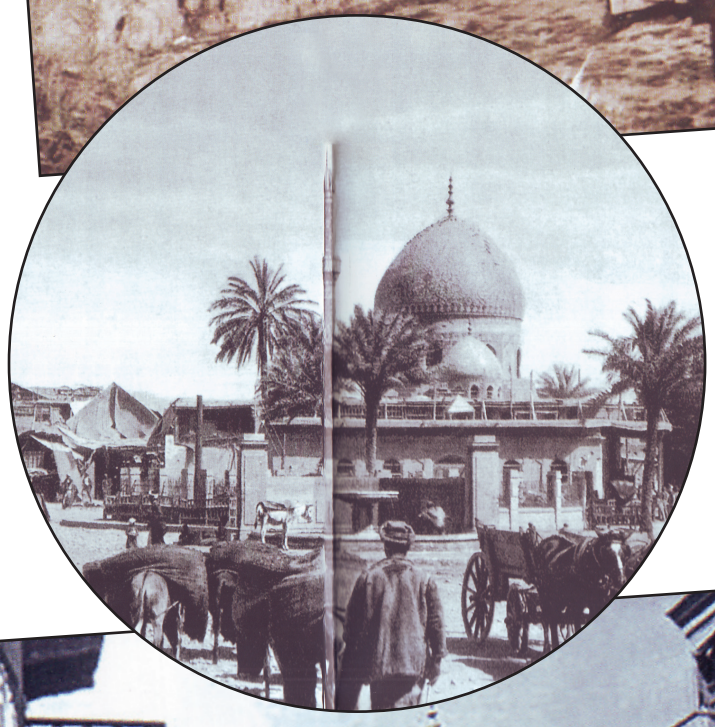

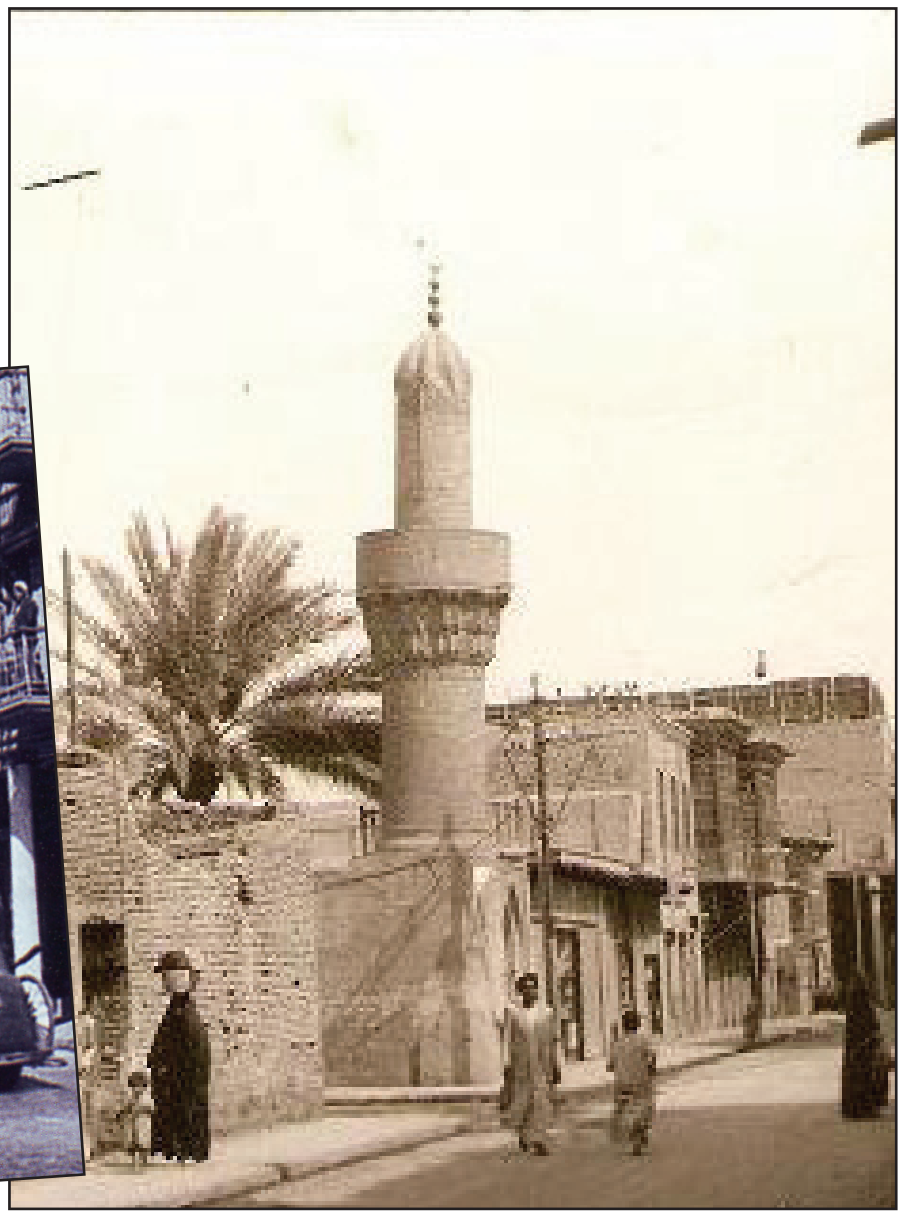

" الخاتون " المس بيل في بغداد (١)

بعد الاحتلال البريطاني للعراق ـ خلال الحرب العالمية الاولي ـ وفي السنوات الاولي لقيام الحكومة العراقية تحت الانتداب البريطاني، وفي وقت كانت فيه المرأة العراقية ما تزال رهينة خدرها، ولم يكن من المألوف فيه ان تشارك في الحياة العامة، ظهرت في مجتمع بغداد امرأة انكليزية فريدة، احتلت مكانة بارزة، ومارست نفوذا واسعا في تأسيس الادارة الجديدة، وفي حكم البلاد، وشاركت في حياتها السياسية، ودخلت مجتمع الرجال بلا تحفظ، فجالست ساسة البلاد وحكامه من عراقيين وبريطانيين، وشيوخ العشائر من عرب واكراد، ورجال الدين من سنة وشيعة، وزعماء البلد ووجوهه من موالين للسلطة ومعارضين.

تلك هي مس بيل التي وان كانت صفتها الرسمية سكرتيرة شرقية للمعتمد السامي البريطاني في العراق، فإنها ـ في الواقع ـ كانت كما لقبها الكثيرون، ملكة غير متوجة للبلاد، لها في كل مجتمع صوت، وفي كل قضية رأي، وفي كل مقام مقال.

سر نجاحها في قهر الصحراء التي أحبتها كان شجاعتها وقدرتها علي احتمال المشاق وتفهمها للناس وظروفهم

نجدة فتحي صفوة
مؤرخ ومترجم ودبلوماسي

حلمت بقطع الجزيرة من شرقها لغربها..

حياة عاطفية فاشلة اورثتها الحزن والحيرة...

وليس من الاسرار التاريخية ان مس بيل كانت احدي الشخصيات التي رسمت، مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني، وكان لها دور كبير في تأسيس الحكومة العراقية الجديدة وربما في نصب فيصل الاول علي عرش العراق.

وسأحاول الآن، وفي نطاق ما يستوعبه الوقت المحدد، ان اقدم لمحات عن حياة غيرترود بيل ورحلاتها ومسيرتها في العراق، مع عناية خاصة بالنواحي التي هي معروفة أقل من غيرها نسبيا عن حياة هذه المرأة التي كان العراقيون يسمونها (الخاتون) ويدعوها الملك فيصل الاول (اختي)، ويخاطبها السيد عبد الرحمن النقيب بـ(ابنتي)، ويلقبها عبد المجيد الشاوي ـ مازحا ـ بـ(ام المؤمنين)، ويسعي اليها الساسة والوجوه والشيوخ واصحاب الحاجات، ويستأذنها بعضهم حتي في زيارة المعتمد السامي، او مواجهة الملك فيصل الاول، ويستشيرونها في الامور المهمة، ويعطون بتوجيهها. هذه هي المرأة التي كانت تضع مشروعات القوانين، وترشح الوزراء، ويحسب لرأيها حساب في وزارتي الخارجية والمستعمرات، وتعد من موجهي سياسة بريطانية في العراق في عهدي الاحتلال والانتداب.

هل كانت مس بيل صديقة للعراق حقا؟ ام كانت قبل كل شيء مغامرة تجوب الآفاق، متعتها وهواها في ركوب الاسفار، ومشاهدة غرائب الامصار، والبحث عن نوادر الآثار؟

نالت غيرترود بيل شهرة لا بأس بها بمؤلفاتها الاولي عن رحلاتها وتنقيباتها الاثرية في الشرق الادني، وفي شمال الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الاولي، ولكن هذه الشهرة كانت محصورة في نطاق معين، وقاصرة علي الاوساط الاكاديمية، وعلي المعنيين بالشؤون الشرقية وعلم الاثار، وشهرتها الحقيقية انما جاءت من رسائلها التي نشرتها بعد وفاتها بسنة واحدة تقريبا.

ان مس بيل ـ لحسن الحظ ـ من الاشخاص الذين يمكن ان تستخلص سيرتهم من رسائلهم، وهذه الرسائل التي كانت تبعث بها الي والديها غالبا، والي بعض اصدقائها المقربين احيانا، باستثناء فجوات قليلة، تغطي حياتها كلها منذ ايام طفولتها في شمال انكلترا، الي مرضها الاخير في بغداد، في تموز (يوليو) سنة ١٩٢٦ . وكانت تكتبها من البلدان التي تسافر اليها. واهمها بطبيعة الحال واحفلها بالمعلومات التاريخية، هي التي كانت تبعث بها من العراق خلال السنوات العشر الاخيرة من حياتها، وهي اشبه ما تكون بالمذكرات او اليوميات، وكانت تكتبها بصورة متعاقبة، وفي فترات قصيرة، وتضمنها وصف كل ما تزوره من اماكن، او تشهده من احداث، او تقوم به من اعمال، وكل ما يعن لها من خواطر ازاءها، او ما يبلغها من اخبار واشاعات بحكم عملها ضابطة استخبارات اولا ثم سكرتيرة شرقية لدار الاعتماد في ما بعد.

كانت غرترود بيل قادرة في نهاية يوم سفر حافل ومتعب، علي تدوين وصف كامل لما شهدته وسمعته في رسائل كانت في كثير من الحالات تبلغ بضع صفحات كبيرة، ذات اسطر ناعمة متراصة، مكتوبة بسرعة كبيرة، وغير خالية من الاخطاء الاملائية. وقد جرت علي هذه العادة يوما بعد يوم وعاما بعد عام، خلال فترة تزيد عن خمسين عاما. وكانت رسائلها الموجهة الي والديها بصورة خاصة تحتوي علي كثير من المعلومات الرسمية والسرية، والاراء والملاحظات الشخصية، ولم يكن ليطلع عليها احد سواهما. وكانا يحتفظان بها في حرز حريز بسبب اهمية المعلومات التي تتضمنها، حتي اصبحت هذه الرسائل تؤلف في مجموعها وثائق تاريخية خطيرة وخاصة عن الحالة السياسية والاجتماعية في العراق، وسجلا حافلا بالمعلومات النادرة والدقيقة عن الاسلوب الذي كان متبعا في حكم العراق، وطراز تكفير البريطانيين العاملين فيه، وطريقة تعاملهم مع العراقيين وآرائهم الحقيقية فيهم، وكيفية اتصال العراقيين بالانكليز، وعلاقات مختلف الشخصيات العراقية في ذلك العهد بهم.

ولما نشرت رسائل غيرترود بيل للمرة الاولي في سنة ١٩٢٧ (وكانت قد رتبتها واعدتها للنشر زوجة ابيها الليدي بيل) حذفت منها الرقابة امورا كثيرة وجدت ان الوقت لم يحن بعد لنشرها، وخاصة فيما يتعلق بمن ورد ذكرهم من الاشخاص الذين كانوا ما يزالون علي قيد الحياة. وعلي اثر صدورها كتب الرحالة المعروف فيلبي رسالة الي محرر جزيرة اوبزرفر شدد فيها الوطأة علي قلم الرقابة، وقال انها شوهت تلك الرسائل ومسختها.

المس بيل في شمال الموصل

وضرب علي ذلك عدة امثلة.

ومع ذلك فقد كان نشر تلك الرسائل حدثا خطيرا، اذ قامت بسببها ضجة كبري، واحتفلت لها الصحافة احتفالا كبيرا. وقد نشرت جريدة تايمز اللندنية بمناسبة صدورها مقالة افتتاحية عن غيرترود بيل واعمالها، اتبعتها بمقالتين مفصلتين تضمنتا عرضا للرسائل وتقييما لها. وجاء في افتتاحية التايمز (٢٢ آب/ اغسطس ١٩٢٧): علي الرغم من أن وفاة مس بيل كانت خسارة عامة عظيمة، فان سيرتها كانت دليلا علي ان طول الحياة ليس شيئا مذكورا الي جانب غزارة ما تحفل به .

وقد راجت رسائل المس بيل رواجا عظيما، فأعيد طبعها سبع مرات خلال اربعة اشهر ومرات عديدة اخري بعدها. وبعد ان كانت مس بيل معروفة في العراق بصفة خاصة، وبين بعض الاوساط المعنية بالشؤون الشرقية في خارجه، فان نشر رسائلها جلب لها شهرة عالمية واسعة.

سيرة المغامرة

وفي سنتي ١٩٦٠ و١٩٦١ نشرت اليزابيث بورغوين سيرة غيرترود بل مستقاة من رسائلها واوراقها الشخصية في جزأين يتضمنان فقرات طويلة مقتبسة من تلك الرسائل. وقالت في مقدمتها في الوقت الذي صدرت فيه طبعة (الليدي بيل) كان التنقيح ضرورة سياسية. ولكنني في هذين الجزأين تمكنت من الافادة بصورة كاملة من جميع رسائلها ويومياتها، فلم احذف منها شيئا ذا اهمية سياسية كانت ام شخصية، ولم اقم ـ عن طريق اضافة عبارات خارجة عن الصدد ـ بأي تحريف في معانيها الأصلية في اي موضع. ففي رسائلها التي بلغ عددها الألوف، وفي ١٤ مجلدا من اليوميات التي خلفتها، كتبت غيرترود بيل حياتها، كما انها عرضت الخفايا السياسية في عهدها .

وعلي الرغم من ان الجزأين اللذين نشرتهما اليزابيث بورغوين يحتويان علي أهم المعلومات عنها، فان قصة المس بيل لم تكتب بعد كما ينبغي لها. وهي قصة امرأة عاطفية، ذكية، مثقفة، تهوي الآثار، وتعشق الاسفار، ولا يقر لها في مكان قرار. احبت مرتين، وفجعت بحبها في كلتيهما، فالتمست النسيان والسلوي في الرحلات، تارة في مدن ايران تتعلم الفارسية وتدرس آدابها، وطورا في جبال الالب تتسلق قممها وتغالب ثلوجها واعاصيرها. ثم في صحاري الجزيرة العربية، تتحدي رمالها وتقتحم مجاهلها، وتتعرف علي قبائلها. واخيرا في العراق تسهم في تأسيس دولته الجديدة، ورسم مستقبله، وتوجيه سياسته.

ان النهج الذي نهجته غيرترود بيل في حياتها، والمهمات التي اضطلعت بها، كان كله من اختيارها وصنعها، واما ما واجهته من اقدار، فلم تكن لها حيلة ازاءها.

وهي كبري بنات السير توماس هبو بيل ، من اكبر رجال استخراج الحديد في يوركشاير. ولدت سنة ١٨٦٨ في مدينة درهام ، وماتت امها وهي في الثالثة من عمرها اثناء ولادة اخيها موريسو ، فتزوج ابوها ثانية من فتاة اسمها فلورنس وهي ابنة السير جوزيف اوليفي، طبيب السفارة البريطانية في باريس. ولذلك نشأت غرترود لا تعرف اما سواها، وهي تدعوها أمي في رسائلها الكثيرة التي كتبتها اليها في ما بعد. وكانت اخت السير جوزيف اوليفي متزوجة من السير فرانك لاسلز الذي كان من الدبلوماسيين البريطانيين البارزين في زمانه.

تلقت غيرترود تعليمها اولا في (كينغ كوليدج)، وكانت تلميذة ممتازة في كل شيء سوي الموسيقي والخط. ثم دخلت جامعة اوكسفورد، وحصلت علي مرتبة الشرف الاولي في التاريخ الحديث وهي دون العشرين من عمرها، وكانت اول فتاة تحصل علي هذه المرتبة من تلك الجامعة المتزمتة.

وكانت السنوات العشر التي اعقبت تخرجها حافلة بضروب منوعة من النشاط، من قيام بخدمات اجتماعية في لندن ويوركشاير، وتسلق جبال الالب في سويسرا وايطاليا، ورحلة حول العالم، وزيارات طويلة الي السير فرانك والليدي لاسلز في العواصم التي كانا يمثلان بريطانيا فيها: بخارست وطهران وبرلين.

وخلال وجودها في ايران درست غيرترود اللغة الفارسية وتعلمتها الي حد استطاعت معه ان تنشر في سنة ١٨٩٧ ترجمة لديوان الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، فنالت الترجمة نجاحا لا بأس

به، وقد سبق لها ان نشرت قبل ذلك ببضع سنوات كتابا آخر بعنوان صور فارسية استوحته من سفرنامة ، ولكنه كان غفلا عن توقيعها لأنه كان في رأيها تافها.

كانت زيارة غرترود الي طهران من أسعد الفترات في حياتها علي الرغم من النهاية المحزنة التي انتهت اليها. فقد تعرفت هناك علي ملحق شاب بالمفوضية البريطانية يدعي هنري كادوغان كان يشاركها حبها للشعر، وسرعان ما وقعت في غرامه، وأعلن الاثنان خطبتهما. وكتبت غيرترود الي ابويها تزف اليهما النبأ، ولكنهما كانا .فيما يبدو .قد سمعا بما يثقل كاهله من ديون، وما يتصف به من طباع صعبة، فطلبا اليها ان تنتظر. وكانت غيرترود قد بلغت سن الرشد، واصبحت مستقلة في اامورها حرة في تصرفها، ولكنها مع ذلك انصاعت لطلبهما، وعادت الي انكلترا فورا. وبعد تسعة اشهر توفي هنري كادوغان علي اثر مرض قصير.

وعلي الرغم من ان بلاد فارس والأدب الفارسي استوليا علي خيالها وتفكيرها في البداية، فان البلاد العربية استهوتها في ما بعد، وملكت عليها نفسها وكان لها اثر ابعد وابقي في حياتها. وقد قرأت غيرترود كتاب الرحالة دوتي عن اسفاره في البلاد العربية، وشغفت به في وقت لم يكن قد لفت الانظار اليه في انكلترا بعد، فجذبها الي الحياة العربية والصحاري العربية والأدب العربي. واخذت ترحل اليها وهي ما تزال جزءا من الدولة العثمانية، كما صارت من سنة الي اخري ترقب انبعاث الشعور القومي العربي ونموه خلال الفترة الاخيرة من حكم السلطان عبد الحميد، وفي عهد جمعية الاتحاد والترقي، وتتابع باهتمام ما يجد في الشرق الادني من تحولات سياسية، وما يحدثه النفوذ الغربي المتزايد من آثار، ولكن اهتمامها الكبير، ومتعتها الحقيقية كانت في الحياة الشرقية: العادات الغريبة عنها، ازياء الطبقات المتواضعة بألوانها الزاهية، آراء الطبقات الحاكمة وطراز تفكيرها، ومدي تمسكها بالاساليب القديمة او اكتسابها تدريجيا مظاهر المدنية الحديثة.

قامت مس بيل برحلتها الاولي الي الشرق الادني سنة ١٩٠٥ مخترقة فلسطين وحوران وشمال سورية علي ظهور الخيل. وكانت خلال ذاك قد تعلمت من اللغة العربية ما مكنها من عقد اواصر الصداقة مع عدد غير قليل من الناس في تلك المناطق. وقد وضعت كتابا وصفت فيه هذه الرحلة سمته الصحراء والمعمورة ونشرته في سنة ١٩٠٦. وفي هذا الكتاب ظهر اهتمامها بالعرب وشغفها باللغة العربية وآدابها للمرة الاولي، وربما كان ابرع كتبها. وهو كتاب تفوح منه رائحة الصحراء ونسائمه جذابة طرية، ومع ذلك لا تطغي فيه العاطفة الجامحة علي الاحكام العقلية المتزنة. وقد صدرت الكتاب ببيت من الشعر العربي لتأبط شرا، هو:

يري الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي
بحيث اهتدت ام النجوم الشوابك

وكانت غيرترود خلال هذه الفترة تهتم بالآثار القديمة التي تمر بمواقعها خلال رحلاتها، حتي اعدت نفسها، بدون دراسة جامعية منظمة، لتكون باحثة اركيولوجية، فقامت في سنة ١٩٠٧ بتنقيبات وحفريات أثرية في مواقع الحثيين والبيزنطيين في منطقة بيك بيركليسه في تركيا، بالتعاون مع السير وليم رامزي الذي تعرفت عليه في مدينة قونية . وفي تلك المدينة ايضا تعرفت علي رجل انكليزي آخر .لا نعرف عنه الكثير. قدر ان يكون له في ما بعد شأن كبير في حياتها ومستقبلها، وهو الكابتن تشارلز دوتي .ويلي .

وقد ظهرت نتائج ابحاث غيرترود والسير وليم رامزي في كتاب مشترك صدر في سنة ١٩٠٩ بعنوان الف كنيسة وكنيسة . وكانت تجارب غيرترود في مجال الآثار القديمة ستصبح ذات فائدة كبيرة لها حين عملت علي تأسيس المتحف العراقي في بغداد بعد ذلك بخمسة عشر عاما تقريبا، مما سنتحدث عنه في حينه.

وفي السنة التالية بدأت غيرترود رحلة اخري، اكثر طموحا، فسافرت من حلب منحدرة علي نهر الفرات، ثم اخترقت الصحراء التي كانت خالية من الطرق المطروقة، باحثة في طريقها عن آثار القصور القديمة، وكانت قد سمعت كثيرا من الروايات عن الاخيضر ، فاجتازت الصحراء مرة اخري الي منطقة قبائل الدليم، وبعد مسيرة اربعة ايام كانت في موقع الاخيضر ، ثم عادت بطريق بغداد والموصل الي آسيا الصغري.

ووصفت غيرترود بيل هذه الرحلة في كتاب من أشهر كتبها وهو من مراد الي مراد الذي صدر في سنة ١٩١١. وفي هذا الكتاب يحتل البحث الاركيولوجي والطوبوغرافي في اراضي ما بين النهرين الهادئة علي حدود العراق الشمالية قسما لا يقل في اهميته عن تقديراتها للاوضاع السياسية في الشرق الادني وانطباعاتها عن ثورة تركية الفتاة ، اضافة الي عدد كبير من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها خلال الرحلة.

وكانت غيرترود بيل كبيرة الاهتمام بالتصوير الفوتوغرافي منذ ذلك الوقت المبكر في تاريخ هذا الفن، ومن اوائل من ادرك قيمته الوثائقية.

وقد صدرت هذا الكتاب ايضا ببيت آخر من الشعر العربي للشاعر الجاهلي لبيد هو :

بلينا وما تبلي النجوم الطوالع
وتبقي الجبال بعدنا والمصانع

وكانت مولعة بهذا البيت كثيرة الترداد له.

وعادت غيرترود بيل الي تنقيباتها الأثرية في الاخيضر في سنة ١٩١١ ونشرت نتائج تلك التنقيبات في دراسة بعنوان قصر الاخيضر وجامعه وهو كتاب ضخم صدر في سنة ١٩١٤ وكان اهم ما نشرته من دراسات اركيولوجية.

حب جديد

كانت غيرترود بيل خلال هذه الفترة تراسل الكابتن تشارلز دوتي .وايلي الذي سبق ان تعرفت عليه في قونية. ولما تكررت مراسلاتهما وتتابعت، اصبح من الواضح لها انها تقع في شباك حب جديد. والتقي الاثنان في لندن في سنة ١٩١٢ ثم في سنة ١٩١٣.

وكانت المشكلة ان دوتي .وايلي كان متزوجا، وكانت زوجته خلال زيارة غيرترود الثانية غائبة عن لندن، ولكن العلاقة بين الاثنين .فيما يبدو .لم تكن سرا، لان غيرترود كانت تدعوه الي يوركشاير، فيذهب لرؤيتها، ويحل ضيفا في دار والديها.وعرض عليها دوتي .وايلي الزواج بعد ان يطلق زوجته، ولكنها رفضت قائلة انها لا تستطيع ان تبني سعادتها علي صرح بيت مهدم. وبقيت بين نارين، يمضها حبها تعذيبا، ويأبي ضميرها ان ينصاع لنداء القلب. فكانت تمر بها فترات من الكآبة واليأس تجعلها علي شفا الانتحار. حتي قررت اخيرا ان تقوم بمغامرة جديدة، فتذهب الي الصحاري العربية التي ما فتئ سحرها يجتذبها.

وكان المشروع الذي تفكر فيه منذ مدة طويلة هو القيام برحلة عبر الجزيرة العربية من غربها الي شرقها، وهي منطقة لم يصلها اوروبي منذ عشرين عاما، ولم تصلها امرأة اوروبية قط، باستثناء

مع فيصل الاول في سفرة في الصحراء

الليدي آن بلنت. فمضت في مشروعها قدما، علها تبتعد عن الجو الخانق الذي احاط بها في انكلترة، وتجد في مغامرتها الجديدة شيئا من السلوي.

بدأت غرترود بيل رحلتها الصحراوية الجديدة من دمشق في بداية سنة ١٩١٣وكتبت قبل مغادرتها رسالة تضمنت هذه الصرخة اليائسة.

لا بد للعالم ان يمضي وشأنه زمنا من دوني. لو عرفت كيف أجيء، علي ثري الجحيم لوجدتني مصيبة في التماس اي مخرج. انها في معظمها غلطتي، ولكن ذلك لا يغير من كونها سوء حظ لكلينا. انني اذهب بعيدا عنه الان.. والزمن كفيل بقتل اكبر المطالب .

وتمكنت مس بيل بعد سفرة مضنية من الوصول الي معاقل شمر في حايل، ولكنها لم تتمكن من الذهاب ابعد من ذلك. وكان امير حايل غائبا، وصلاته مع جاره الجنوبي امير نجد عبد العزيز بن سعود سيئة. فتخوّف نائب امير حايل من السماح لامرأة اوروبية مسيحية بالمرور الي بلاد سكانها محافظون متعصبون لتقاليدهم، واحتجزها في حايل، فكانت اشبه بسجينة او اسيرة محترمة، ولم يسمح لها بمواصلة رحلتها، فاضطرت الي العودة الي بغداد في نيسان (ابريل) ١٩١٤، فوصلتها متعبة خائرة القوي، كسيرة الخاطر لاخفاقها في المشروع الذي فكرت فيه سنوات طويلة، وعلقت عليه آمالا عريضة. ولكنها مع ذلك حصلت خلال هذه السفرة علي ذخيرة كبيرة من المعلومات الجغرافية، وتعرفت علي عدد كبير من الاشخاص في شمال الجزيرة العربية، واطلعت علي التيارات السياسية والعلاقات القبلية في تلك المناطق، مما كان سيعود عليها بفائدة كبيرة في عملها في المستقبل، ذلك العمل الذي لم تكن بعد لتعلم شيئا عنه، ولم يمر بخلدها مرورا.

فكان تقييمها لامير نجد عبد العزيز بن سعود. مثلا .بأنه: اهم شخصية في وسط الجزيرة العربية . وقد سجلت هذا الرأي في ذلك الوقت المبكر الذي كانت فيه شخصية الملك عبد العزيز غير معروفة في العالم الخارجي، ولم تكن الاحداث قد اظهرته علي مسرح السياسة العربية والدولية بعد.

وكانت غيرترود بيل تقوم بمعظم رحلاتها المحفوفة بالمخاطر دون ان يصحبها رفيق سفر، ولم يكن معها سوي خادم واحد. وهي لم تحاول قط، في اي مكان حلت فيه ان تخفي هويتها او كونها امرأة. بل انها كانت تعتقد ان كونها امرأة هو خير حماية لها بين عرب الصحراء الفخورين بعاداتهم، والذين يحترمون الثقة التي توضع فيهم، ويعدون حماية الضيف، والذود عن ماله وعرضه، من واجبات المروءة والشرف.

ويري كل من كتب عن مس بيل ان سر نجاحها في قهر الصحراء التي احبتها احيانا، واحتوتها اخري، هو انها فضلا عن بنيتها القوية، وقدرتها العجيبة علي احتمال المشاق، جمعت بين الشجاعة المتناهية، والتفهم السريع لكل من تجعلها الظروف علي اتصال بهم من الناس، علي اختلاف بيئاتهم وعقلياتهم.

عادت مس بيل الي انكلترة في آذار (مارس) ١٩١٤، فمنحتها الجمعية الجغرافية الملكية وساما ذهبيا تقديرا لرحلتها الصحراوية الاخيرة، ولكنها لم تتمكن من سرد قصة هذه الرحلة في كتاب كما فعلت بعد رحلاتها السابقة، مع انها كانت من اهمها واحفلها بالمغامرات، فقد حال دون وضعها كتابا عن رحلتها الي حائل نشوب الحرب العالمية الاولي بعد عودتها بشهور قلائل، وقرارها بأن تتطوع للقيام بعمل ما لخدمة بلادها خلال الحرب. وقد انتمت الي مكتب اسسته منظمة الصليب الاحمر للبحث عن المفقودين والجرحي في بولون بفرنسا.

وخلال وجودها في لندن لقيت الكابتن دوتي . وايلي مرة اخري. وكانت جذوة الحب بينهما . فيما يظهر .ما تزال متقدة. وفي ذلك الوقت صدرت اليه الاوامر بالالتحاق باحدي الوحدات التي كانت تقاتل في غاليبولي (جناق قلعة) في الدردنيل. فقضت معه بضعة ايام قبل سفره. وفي ٢٠ نيسان (ابريل) كتب اليها من ساحة القتال قائلا:

عزيزتي: الليلة سأجمع كل رسائلك، وأرزمها، وأتركها معنونة اليك . وكأنه كان يشعر بمصير محتوم قريب، لانه اكد عليها في هذه الرسالة ان لا تفكر في الانتحار او تقوم بمحاولة من هذا القبيل .. لان ذلك سيجعل روحي في عالم بعيد آخر، اكثر حزنا واضطرابا .

وكانت اقامة غيرترود بيل في لندن، بعد سفر داوتي .وايلي اقسي فترة في حياتها، لم تذق فيها طعما للراحة ولا للسعادة، فقد كان اخوها موريس في جبهة القتال في فرنسا، والرجل الذي احبته في اهوال القتال في الدردنيل.

وكانت اخت غيرترود لأبيها الليدي ريتشموند تقيم في منطقة هامبستيد في لندن، وكانت غيرترود تتردد عليها او تخاطبها بالتلفون كلما اثقلتها الهموم، فتجد شيئا من الراحة. وبينما كانت غيرترود تتناول الغداء مع بعض اصدقائها في لندن، بلغها ان الكابتن دوتي وايلي قتل في الدردنيل وهو يقود مفرزة استرالية. فذهبت بأسرع ما تستطيع الي اختها، وهي في حالة من الذهول واليأس والأسي. فلما رأتها اختها حسبت بادئ الامر ان اخاها قتل في الحرب، ولكن غيرترود صرخت قائلة: لا.. ليس موريس . وسقطت علي احد الأرائك تجهش بالبكاء.

وبينما كانت غيرترود بيل في غمرة حزنها وحيرتها فتح امامها بصورة مفاجئة تماما، باب جديد الي الشرق. ففي خريف سنة ١٩١٥، حينما كانت بوادر حركة قومية عربية منظمة تظهر الي الوجود وتتبلور، اخذت السلطات البريطانية في القاهرة تستخدم عددا من الاشخاص الذين لهم معرفة سابقة بالبلاد العربية، وخبرة في شؤونها، للعمل في مكتب استخبارات انشأته هناك باسم المكتب العربي . وكانت المهمة الاولي لهذا المكتب اجتذاب تلك الحركة العربية نحو بريطانيا، واستغلالها لصالح الحلفاء. وكان رئيس هذا المكتب الجنرال كلايتن، ومن اعضائه هوغارث، ولورنس، وكورنواليس. فرشحت غيرترود بيل للعمل في هذا المكتب ايضا، لخبرتها في الشؤون العربية، وخاصة في شؤون العشائر، تلك الخبرة التي ظهرت جليا في مؤلفاتها عن رحلاتها في البلاد العربية.

ووصلت غيرترود الي القاهرة في ٣٠ تشرين الثاني (يناير) سنة ١٩١٥، فعهد اليها بمهمة تجميع ما لديها وما يتيسر لها الحصول عليه من معلومات عن العشائر في شمال جزيرة العرب، وتلخيصها وتحليلها، للافادة منها في علاقات بريطانيا مع تلك العشائر واتصالاتها بها. وقد اصبح المكتب العربي في ما بعد مدرسة سياسية عرفت بمدرسة القاهرة، تقابل مدرسة الهند . وكان لاعضائه دور مهم في صياغة سياسة بريطانيا في العراق وفي الشرق العربي بعد الحرب.

وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ ارسلت غيرترود بيل في مهمة خاصة من القاهرة الي دلهي بطلب من حكومة الهند التي كانت تعد معجما جغرافيا للبلاد العربية، فرغبت في الاستعانة بما لديها من معلومات وفيرة في هذا الموضوع. وكان نائب الملك في الهند اللورد هاردنغ صديقا قديما لها، فلما أنهت مهمتها هناك طلب اليها ان تمر بالبصرة بطريق عودتها، وكانت الحملة الاستطلاعية البريطانية قد احتلها.

ووصفها اللورد هاردنغ للسير برسي كوكس، كبير الضباط السياسيين في الحملة البريطانية بأنها امرأة خارقة الذكاء، ولها دماغ رجل، تتكلم العربية بطلاقة وتعرف عن عشائر الصحراء اكثر من اي شخص آخر، ربما باستثناء ليتشمان.

وكانت الغاية من إرسالها الي البصرة هي ان تربط بين ما لديها من معلومات عن العشائر العربية، وبين ما كان يصل الي مقر الحملة الاستطلاعية البريطانية التي كانت قد احتلت البصرة قبل ذلك. فكان وصول غيرترود الي البصرة، فيما اريد به ان يكون زيارة قصيرة، بداية صلة جديدة بالعراق. صلة قدر لها ان تستمر حتي اليوم الاخير من حياتها. فقد ألحقت اولا بهيئة موظفي الاستخبارات العسكرية، وبعد ثلاثة اشهر انضمت الي هيئة سكرتارية رئيس الحكام السياسيين، السير برسي كوكس، بصفة ضابط سياسي مساعد، واخذت تقوم بواجبات السكرتير الشرقي. وعلي اثر احتلال بغداد في آذار (مارس) سنة ١٩١٧، وانتقال سلطة الاحتلال اليها، انتقل معها السير برسي كوكس.

نشر المقال في صحيفة الشرق الاوسط 2001 وهو تعقيب على كتاب بغداد العشرينات

في احدى حدائق بغداد

في قصر الاخيضر

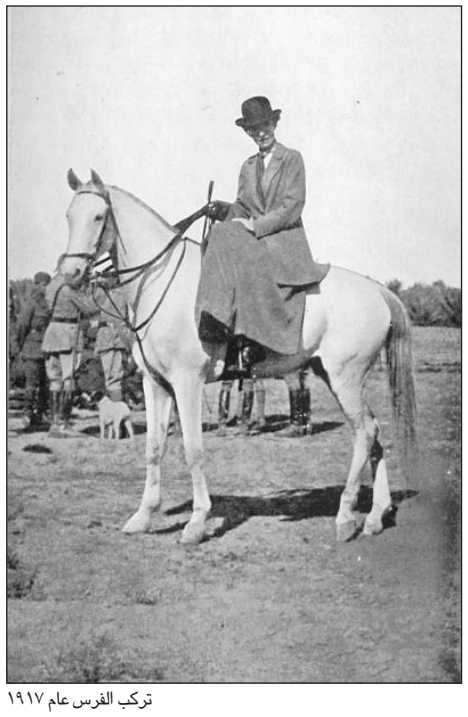
تركب الفرس عام ١٩١٧

معارك برلمانية في صحف الخسمينات

عبد الكناني

عرف العراق اول مجلس نيابي عام ١٩٢٥ وكان يتكون من مجلس الاعيان ويعين الملك اعضاءه ومجلس النواب وينتخب بالاقتراع المباشر الذي كان في حقيقة الامر نوعا من التعيين ولعل اصدق صورة لهذا المجلس ما كتبه احد النواب في جريدة ((البلاد)) عام ١٩٤٦اذ قال»ان اصبحت قائمة مطبوعة تصدر من وزارة الداخلية (تليفونيا)وتبلغ الى المتصرفيات ومن ثم الى جمع من فراشي البلدية وسعاة البريد وصغار الموظفين يفترض انهم المنتخبون الثانويون ثم انتخاب مسرحي فكاهي محزن ينتهي بتعيين النائب وهو بطبيعة الحال مقصوص اللسان واليد ولم تكن السلطات المتعاقبة تخفي ذلك او تتستر عليه فهذا نوري السعيد قطب السلطة في العراق يخاطب النواب قائلاً بصراحة»هل بالامكان- اناشدكم بالله-ان يخرج احد نائبا مهما كانت منزلته في البلاد ومهما كانت خدماته في الدولة ما لم تأت الحكومة وترشحه؟

فاني اراهن كل شخص يدعى مركزه ووطنيته ان يستقيل الان ويخرج ونعيد الانتخابات ولاندخله في قائمة الحكومة ونرى هل هذا يخرج نائباً»ولما خيب الشعب امال نوري السعيد في انتخابات صيف ١٩٥٤وانتخب عشرة نواب يمثلون الجبهة الوطنية فازواعلى الرغم من كل اعمال التزييف والضغط قال نوري السعيد وكان يومها يعالج في احد مستشفيات لندن:»لن ادع هذا المجلس يجتمع ساعتين» وتحقق لنوري ما اراد فلم يجتمع المجلس سوى اقل من ساعتين استمع خلالها الى خطاب العرش ثم اجلت اجتماعاته وحل فيما بعد بارادة ملكيه عشية تشكيل نوري السعيد لوزارته الثانية عشرة في آب من العام نفسه. وترينا هذه الصورة مدى احترام النظام الملكي المندثر لهذا الحق المقدس الذي نص عليه الدستور والمناخ الذي عملت فيه الصحافة الوطنية ضد هذا التزوير لارادة الامة وقد اتخذت الحركة الوطنية وصحافتها موقفين متعارضين احيانا من حيث المشاركة في الانتخابات التي جرت خلال هذه الفترة(١٩٤٦-١٩٥٨) وهي موضوع دراستنا وان كانت جميعها قامت بدورها في كشف التزوير الذي حصل فيها.فانتخابات ١٩٤٧ قاطعها الشيوعيون وحزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب وشارك فيها حزبا الوطني الديمقراطي والاستقلال اما حزب الاحرار فقد اعلن مشاركته فيها ثم قاطعها بعد ان اجتازت بعض مراحلها. اما انتخابات ١٩٤٨فقد شاركت فيها جميع القوى الوطنية عدا الشيوعيين الذين رفعوا شعار(لانتخابات حرة والاحرار في السجون)وطالبوا بوجوب تنظيف الجهاز الاداري ذي الصلة المباشرة بالانتخابات اما الانتخابات الثالثة فقد جرت في ظل الاحكام العرفية اثر انتفاضة تشرين ١٩٥٢ لذلك لم تشارك فيها القوى الوطنية. والانتخابات الرابعة وهي التي جرت في حزيران ١٩٥٤وقد شاركت فيها القوى الوطنية في جبهة موحدة اما الانتخابات الاخيرة التي سنتعرض لها بالدراسة فهي انتخابات خريف ١٩٥٤وقد شارك فيها حزب الاستقلال وقاطعها الحزب الوطني الديمقراطي وحزب البعث. واشير هنا الى انني اغفلت الانتخابات التي جرت في ربيع ١٩٥٨اي قبيل ثورة ١٤تموز بثلاثة اشهر وذلك لان الاحزاب كانت قد حلت والصحافة الوطنية العلنية اغلقت ولم يشارك فيها احد غير اتباع الحكومة ومما يذكر ان ثلاثة وخمسين سياسيا من الاحزاب المنحلة والشخصيات المستقلة واساتذة الجامعة وبعض النواب السابقين كانوا قد وجهوا بيانا الى الشعب دعوه فيه لمقاطعة تلك الانتخابات. انتخابات ١٩٤٧ وموقف الصحافة منها: شكل نوري وزارته في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦ وكانت باكورة اعمالها صدور الارادة الملكية بحل المجلس النيابي وذلك (بناء على انتقال الوضعية العالمية من حالة الحرب الى حالة السلم وضرورة اتخاذ تشريعات تلائم هذه الحالة الجديدة التي تتطلب ان يسود السلم في العالم). وبعد يومين من تشكيل الوزارة عقد نوري السعيد مؤتمرا صحفيا قال فيه:((ان وزارتي ستكون انتقالية ومهمتها اجراء انتخابات حرة لذلك سنمنع التزوير ونمنع كل تهديد او اعتداء فيها ولا تستعمل الحكومة نفوذها في الانتخابات لتفضيل مصلحة شخص على اخر «ولم يكتف السعيد بذلك بل عقد بعد اسبوع مؤتمرا صحفيا اخر قال فيه:((انه لن يكون هناك ضغط على احد باعتباره رجعيا او شيوعيا)) ثم حاول ان يتقرب الى المعارضة وان ينتقد ماضيه المريب والمعروف جيداً لدى الشعب فقال: (اننى اعرف اني في نواقص وان لي اخطاء وليست العبرة ان المرء لايخطئ بل العبرة هي ان يصحح اخطاءه).وقد وقفت الحركة الوطنية الفتية من هذه الانتخابات التي هي اول انتخابات تواجهها بعد الحرب الثانية وبعد الحريات الشحيحة التي حصلت عليها موقفين متباينين فبينما حزبا الاتحاد الوطني والشعب والشيوعيون لم يشاركا فيها، شارك حزبا الاستقلال والوطني الديمقراطي اما حزب الاحرار فقد شارك في مراحلها الاولى ثم قاطعها بعد ذلك. والواقع ان الحزب الوطني الديمقراطي لم يكتف بالمشاركة في الانتخابات بل شارك في الوزارة السعيدية ايضا فشغل نائب رئيس الحزب محمد حديد وزارة التموين لمدة اربعين يوما ثم استقال احتجاجا على تدخل جماعة(الكتلة)في الانتخابات مع ممثل حزب الاحرارعلي ممتاز الدفتري وكذلك لعدم استجابة السلطة لشروط الحزبين عند مشاركتهما في الوزارة ومن بين هذه الشروط دعم الحياة الحزبية وفتح فروع للاحزاب خارج بغداد وبعد يومين من استقالة ممثلي الديمقراطي والاحرار استقال من الوزارة ايضا صادق البصام وصالح جبر ليصبحا اكثر حرية في التدخل في الانتخابات ومن ثم لضمان المجئ ببرلمان يمكن ان تمرر عليه المعاهدات والاحلاف دون ضجة وقد تحقق ذلك فيما بعد. فقد كان هدف الانجليز ونوري تجميع برلمان يعطي الشرعية لمعاهدة جديدة تحل محل معاهدة ١٩٣٠ المعقودة مع بريطانيا. ،ولهذه الاسباب وقف الشيوعيون- حزب التحرر الوطني-وحزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني ضد هذه الانتخابات وطالبوا بان يعطي الشعب اولا الحريات الديمقراطية وان يفسح المجال امام الحياة الحزبية السليمة مع ضمان حرية الصحافة ، وقد انتقدت جريدة صوت السياسة لسان حزب الاتحاد الوطني مشاركة ممثلين عن الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاحرار في الوزارة السعيدية فقالت:» ان اشتراك الاحزاب في هذه الوزارة تاكيد للادعاء بحرية الاحزاب في الوقت الذي تكون فيه في الواقع مضطهدة ومحاربة ومضيقا عليها اشد تضييق». ودعت الى مقاطعة الانتخابات وقالت:((اننا بمقاطعتنا هذه الانتخابات لانسلك سياسة جامدة سلبية لان هذه الانتخابات ليست انتخابات اعتيادية لا تاثير للمجلس الذي ينبثق عنها في مستقبل البلاد وكيانها الوطني)). ثم اشارت الى المشاريع الاستعمارية التي ستطرح على المجلس ومن بينها تعديل معاهدة ١٩٣٠ اضافة الى فقدان الديمقراطية وشخصية نوري السعيد المعروفة باتجاهاتها واختتمت بالقول:((ان حزب الاتحاد الوطني يرى ان مقاطعة الانتخابات في الظرف الراهن انجح وسيلة لفضح الغاية المبطنة التي يحاول الاستعمار البريطاني واعوانه في هذه البلاد تحقيقها عن طريق البرلمان القادم وان اقل ما يمكن ان يجنيه الشعب من هذه المقاطعة تحرير البرلمان المنتظر من صفة المشروعية التي يراد اسباغها عليه)) وكذلك اتخذ حزب الشعب وجريدته الوطن هذا الموقف نفسه من هذه الانتخابات فاصدر الحزب بيانا في الخامس من شباط ١٩٤٧ دعا فيه الى مقاطعتها.وقال حسين محمد الشبيبي رئيس المؤسسة لحزب التحرير الوطني:» فنحن اذن ننبه المواطنين الى خطر الاخذ بزعم انتخابات حرة والى خطر الاشتراك في مثل هذه الانتخابات التي يراد بها الاتيان بمجلس وبوزارة مكلفة بتبرير بقاء الامتيازات الاجنبية ومكلفة بالتصديق على المشاريع والخطط الاستعمارية التي يراد اعطاؤها الصفة الشرعية»كما ان جريدة الحزب الشيوعي السرية (القاعدة) فضحت سبب مجيء وزارة نوري السعيدو البرلمان الذي ستجرى انتخابه فقالت»((ان الانجليز الذين هم الذين اوحوا بمجيئها لاحكام

صادق البصام

صالح جبر

سيطرتهم على مقدرات البلاد ولذلك من غير المعقول ان تجري انتخابات حرة بينما لا تزال الصحافة مضيقا عليها والاحزاب محاربة)). وحين اتضح بطلان مزاعم نوري السعيد حول حرية الانتخابات وانكشفت لعبة التدخل واستقال وزيرا الوطني الديمقراطي والاحرار من الوزارة قالت صوت السياسة : ((لقد توقعنا كل هذا وحسبنا حسابه وعرفنا انه لا معنى لحرية الانتخابات اذا لم تكن على اساس من الحريات الديمقراطية ولانريد ان ندعي اننا كنا بذلك سباقين فليس صعبا ولا عسيرا على كل وطني واع يربط المقدمات بالنتائج ان يدرك ذلك ويتوقعه)). اما الطرف الثاني في الحركة الوطنية واعني بهما حزبي الوطني الديمقراطي والاستقلال فبررا مشاركتهما في الانتخابات بمراقبتها وكشف التزوير الذي يحصل فيها((ثم اذا كان المجلس القادم سينظر في مشاريع استعمارية هامة فالاولى ان يكون للحركة الوطنية صوت من على منبر هذا المجلس وعندما سئل كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي في الاجتماع الذي عقده لكوادر حزبه عن تأثير عدم اشتراك الاحزاب الوطنية الاخرى في الانتخابات على عدم المجئ باكبر عدد من النواب التقدميين قال:((اننا لم نستهدف من دخولنا الى الوزارة اخراج اكبر عدد ممكن من التقدميين بل ان هدفنا الاساس هو اوسع من ذلك بكثير انه يتعلق بدفاعنا عن الديمقراطية فنحن نرى ان من واجبنا ان لا تمارس الحياة الديمقراطية بصورة سلبية دائما))وقد استطاعت هذه الانتخابات كما اراد لها نوري السعيد ومن ورائه الانجليز ان تحقق الهدفين اللذين جاء من اجلهما نوري وهما المجئ ببرلمان يمكن ان يقرر المعاهدات والاحلاف المقرر عقدها وثانيهما شق وحدة الحركة الوطنية المتنامية التي ما زالت العلاقات بين اطرافها هشة وتتسم بالحذر. فليس مصادفة ان يشرك نوري السعيد في وزارته وزيرين يمثلان حزبين فقط من مجموع الاحزاب الخمسة العلنية التي كانت قائمة انذاك وان يصرح في مؤتمر صحفي عندما سئل عن عدم اشراكه لممثلين من الاحزاب الاخرى وهي الاستقلال والشعب والاتحاد الوطني حتى تصبح وزارته ائتلافية وتستطيع الاشراف على الانتخابات قائلا: ((ان هذا التعاون اضمن من التعاون مع الاخرين)). وقد اثبتت الايام صواب نظرة الاحزاب التي قاطعت تلك الانتخابات فقد بلغ التزوير اشده(حتى ان الشرطة المدججة بالسلاح كانت تجوب ساحات الانتخابات للتأثير على الناخبين واجبارهم على انتخاب مرشحي الحكومة) وبالتالي لم يفز احد من مرشحي حزب الاستقلال في حين حصل الحزب الوطني على اربعة مقاعد من مجموع ١٣٨مقعدا. اضافة لذلك لم يبر نوري السعيد بوعده فلم يطلق حرية الصحافة ولم يسمح للاحزاب ان تفتح فروعاً لها خارج بغداد بل ترك ذلك للمتصرفين واجهزة الامن ودوائر الشرطة . اما حزب التحرير الوطني فقد برر نوري السعيد عدم اجازته بقوله:«لقد طلب الاجازة قبل وزارة السويدي ولم يجزكما لم يجزه السويدي ولا العمري وهذا يعني ان رأى الدولة قد استقر على ذلك..لان جميع ملفاته لاتبشر بخير».

دور الصحافة في فضح تزوير ارادة الناخبين:

بدأت الانتخابات الاولية في ٥/ ١/ ١٩٤٧ والانتخابات النهائية في ١٠/ ٣ من العام نفسه.وخلال هذه الفترة مارست الحكومة وشرطتها مختلف انواع التزوير والضغوط فتصدت لذلك الصحافة الوطنية وكتبت جريدة صوت الاهالي سلسلة من المقالات فضحت فيها كتلة صالح جبر وتدخلات الحكومة في الانتخابات وكان اول مقال لها في هذا المجال ما كتبته في ١٠/ ١٢/ ١٩٤٦ حيث اكدت اهمية الانتخابات النيابية المقبلة باعتبارها أول انتخابات تجرى بعد الحرب العالمية الثانية وما ينتظر العراق من مشاريع ومعاهدات مع بريطانيا وتركيا والاردن ونشرت صوت الاهالي شكاوى التدخل في الانتخابات خلال فترة امتدت نحو ثلاثة اشهر من اواخر كانون الاول ١٩٤٦ الى اوائل اذار ١٩٤٧. وقالت صوت الاهالي ((ان التدخل في الانتخابات يفسد نتيجتها ويزيل ثقة الناس بحريتها وان التدخل في الانتخابات من شأنه استبقاء الاوضاع المخالفة للدستور وان رقابتها وفضح»التدخل فيها اول واجبات الشعب اليوم «وتساءلت كيف يمكن القول بفكرة الانتخابات الحرة وهذه المداخلة الصريحة الواضحة. وعقد الحزب الوطني الديمقراطي اجتماعات في بغدادوالبصرة والموصل والصويرة لنشر الدعوة الانتخابية وتوضيح اهداف الحزب ومنهاجه الانتخابي كما عقد اجتماعا عاما في بغداد في ٧ شباط ١٩٤٧ خطب فيه كامل الجادرجي وقال ان للحزب هدفين هما تحقيق الاستقلال والاستقرار وتحقيق «الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي وان الرجعية قوية تهاجم الحزب الوطني الديمقراطي ولكن الحزب يعمل على انتزاع حقوق الشعب عن طريق المعركة الانتخابية. وشرح حسين جميل في هذا الاجتماع منهج الحزب في الانتخابات النيابية والقى طلعت الشيباني خطابا عنوانه «نكافح داخل البرلمان وخارجه» المطالبة بحل المجلس النيابي: لم تجد القوى الوطنية سواء التي شاركت في الانتخابات ام التي قاطعتها بدا من المطالبة بحل المجلس الذي اجمعت الصحف الوطنية على وصفه بانه لا يمثل ارادة الامة . فعقد حزب الشعب اوسع اجتماع له منذ تاسيسه وذلك في الرابع عشر من اذار اي بعد يومين من اعلان نتائج الانتخابات بحث فيه قضايا الوطن الرئيسة ومن بينها ما اسماه بمهزلة الانتخابات وارسل حزب الشعب مذكرة الى كافة الاحزاب السياسية دعا فيها لتكوين جبهة للدفاع عن الحريات الديمقراطية كما تضمنت المذكرة الدعوة للعمل على حل المجلس النيابي الجديد وتأليف مجلس يمثل الشعب حقا ياتي عن طريق انتخابات ديمقراطية حرة وفي السابع عشر من الشهر المذكور نشر الحزب الديمقراطي بيانا اعلن فيه سحب نوابه الاربعة من المجلس((بعد ان ادى الحزب دوره في امتحان رجال الحكم في اثبات صدق نواياهم)). ودعا الامة الى مواصلة النضال في سبيل تحقيق حقوقها الدستورية.ثم ما لبثت الاحزاب ان عقدت اجتماعا شارك فيه رؤساء الاحزاب الخمسة- الوطني الديمقراطي والشعب والاستقلال والاتحاد الوطني والاحرار-واصدروا بيانا طالبوا فيه بحل المجلس واجراء انتخابات جديدة وكشفوا اساليب التزوير التي قامت بها الحكومة .الا ان السلطة لم تكترث طبعا لهذا النداء بعد ان حققت ما ارادته وبعد ان فات الحركة الوطنية ان سلاحها هو وحدتها واتخاذ الموقف الموحد قبل حلول الكارثة- وخاصة ان هذه الانتخابات هي اول اختبار تواجهه حركتها الفتية حتى يصبح لرأيه الموحد وزنه الحقيقي الذي يعتمد على جماهير الشعب ولا يتركها في حيرة وبلبلة. وقد استقالت وزارة نوري السعيد بعد اجراء الانتخابات وعهد بتشكيل الوزارة الى صالح جبر كما كان مرسوما من قبل فالف جبر وزارته في التاسع والعشرين من آذار ١٩٤٧ بعد ان احتفظ الوصي بكتاب استقالة نوري السعيد ثمانية عشر يوما واختار صالح جبر زملاءه من الوزراء السابقين مما كانت السفارة البريطانية ترتاح الى استيزارهم ومن ابرز ما قامت به هذه الوزارة محاربتها للاحزاب وتضييقها على الصحافة وحل حزبي الشعب والاتحاد الوطني وابطال رخصتهما ومحاكمة قادة الحزب الشيوعي وعقد معاهدة بورتسموث التي مزقها الشعب كما سياتي ذلك عند حديثنا عن الصحافة والاحلاف..

ذاكرة الموصل أيام زمان

سعود ألجليلي
باحث راحل

لشعوب الأرض أيام لا يمكن أن تمحى من ذاكرة تلك الشعوب ،وقد استخدموا تلك الأحداث كتواريخ لأحداث مهمة في حياتهم فيقال ولد فلان في حادثة كذا وتوفي فلان بعد حادثة كذا،

كذلك هو الحال في موصلنا المحروسة فان فيها أياما لا ينساها الأهلون مهما مر من الزمان على وقوع تلك الأيام عندما كنت أتصفح بعض الكتب و الأوراق القديمة المحفوظة لدي وجدت عنوانا جذبني ودفعني لكي أدبج هذه المقالة

كان عنوان هذه الأوراق (أشهر الحوادث التي يؤرخ بها أهل الموصل) وعليه سوف اسرد لكم هذه الحوادث بعد إعادة صياغتها اللغوية بشيء من الحداثة عسى أن ينتفع بها العامة و المثقفون في مدينتنا المحروسة .

(سنة الليرة)

أي سنة غلاء الليرة وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٧ هجرية الموافق آذار سنة ١٨٨٠ ميلادية شحت الأمطار في الموصل واجر بت أرضها وارتفعت أسعار المواد الغذائية ومنها الحنطة التي أصبحت الوزنة الواحدة منها بليرة ذهب عثمانية واحدة .

(ألفيضان الكبير)

وهو فيضان نهر دجلة الكبير الذي حدث في سنة ١٣٠٤ هجرية الموافق سنة ١٨٨٧ ميلادية وفيها طغى الماء حتى شمل حاوي الموصل بأجمعه فأرخ ذلك بعض الأدباء بقولهم (سفينة طافت بحاوي الموصل) و التاريخ الشعري يشير إلى سنة ١٣٠٤ هجرية .

(سنة الفريق)

وهي السنة التي جاء فيها للموصل الفريق عمر وهبي باشا بصفته مأمور إصلاحات ومخول بصلاحيات كبيرة فحبس ونفى وأعدم خلق كثير ، وكان وصول الفريق للموصل في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٠٩ هجرية الموافق ٥ تموز سنة ١٨٩٢ ميلادية ، وقد هجاه احد أدباء الموصل بقصيدة تاريخها (أرخت في ضيق عمر) و التاريخ الشعري يشير إلى سنة ١٣١٠ هجرية.

(إنجماد الشط)

وهي السنة التي أنجمد فيها نهر دجلة بتمامه بحيث سارت الناس فوقه وحدث في هذه السنة برد شديد جدا وسقطت ثلوج أهلكت الحرث والنسل، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٣ هجرية الموافق كانون الثاني سنة ١٩٠٦ ميلادية. وكان أول كانون الثاني سنة ١٩٠٦ يقابل اليوم السادس من ذي القعدة سنة ١٣٢٣ هجرية.

(دقة الشيخ سعيد)

أي الحادثة المشهورة بفتنة الشيخ سعيد التي حدثت في الموصل ولا تخفى على كثير من المؤرخين والباحثين ونقول إنها حدثت في اليوم الثاني من عيد الأضحى المبارك الموافق ١١ ذي الحجة سنة ١٣٢٦ هجرية الموافق ٤ كانون الثاني سنة ١٩٠٩ ميلادية .

(سنة ألذراية)

وهي السنة التي حصل فيها برد شديد جمد على أثره طرفي نهر دجلة وسقطت في تلك السنة كميات كبيرة من الثلوج واستمر سقوطها أيام وهلك فيها معظم المواشي وسميت بالذراية لكثرة ما سقط من الثلوج التي كانت تصاحبها الرياح فتذري الثلوج كما يذري الفلاح قمح وكان بداية سقوط الثلوج في ٢٠ محرم الحرام سنة ١٣٢٩ هجرية الموافق ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩١١ ميلادية .

(السفر برلك)

السفر برلك أو السفر بر تركيب تركي ويقصد به التعبئة والتأهب للحرب وتسفير العساكر والتنقلات في ميادين الحرب وبدء اشتعال نار الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى) وذلك في شهر رمضان سنة ١٣٣٢ هجرية الموافق لشهر آب سنة ١٩١٤ ميلادية ، وانتهت الحرب العظمى بعقد الهدنة في ٢٦ محرم الحرام سنة ١٣٣٧ هجرية الموافق ٣١ تشرين الأول سنة ١٩١٨ ميلادية .

(سقوط الموصل)

أي احتلال الموصل من قبل القوات البريطانية وسقوطها بيدهم وانسحاب القوات التركية إلى ما وراء الحدود العراقية وكان ذلك في ٣ صفر سنة ١٣٣٧ هجرية الموافق ٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ميلادية.

هذه هي أهم الحوادث التي عثرت عليها فما هي الحوادث التي نؤرخ بها نحن في أيامنا هذه ؟ وبماذا سوف تؤرخ الأجيال القادمة ؟!، وقى الله الموصل والعراق الحبيب من كل حادث سوء وزادنا الله حوادث جميلة نؤرخ بها أيامنا القادمة .

عن مجلة العاملون في النفط 1966

الكوت في العهد العثماني

عبد المنعم تقي

مهما اختلف الباحثون في حقيقة مدينة الكوت تسمية وتأريخاً فمما تجدر الاشارة اليه ان معنى كلمة الكوت جاءت من التكييت أي التجهيز وان العمارة معنى القبيلة التي كانت تسكن المنطقة وهي عشائر بني لام او ربما جاءت لفظة العمارة او (الامارة) لغير الناطقين بالظاد من العمارة التي انشأها الاتراك في الجهة الشرقية من نهر دجلة مقابل شط الحي (الغراف) ولا علاقة لها بمعنى كلمة (الامارة) المأخوذة من الامرة او الامير والتي تعني اليوم عندنا مشايخ ربيعة والتي سكنت واستوطنة منطقة الاحرار وما يحيط بمنطقة الكوت بعد ان كنا قد سمعنا لفظة (كوت العمارة) اذ ان من المؤكد أن عشيرة الامارة وافخاذها قد سكنت منطقة الحسينية (الاحرار) حاليا من زمن قريب وبالتحديد ايام الوالي مدحت باشا سنة ١٨٦٩ م او بمدينة العمارة التي يثبت تاريخها انها قد اسست بعد مدينة الكوت بسنين ومع كل الاختلاف في التسمية ودلالتها وما يفسره البعض من الباحثين في تاريخها فالحقيقة تقول ان مدينة جميلة غفت بين احضان دجلة يضمها من جهات ثلاث ويمدها من جماله سحرا وعذوبة وخصبا سكنتها باديء ذي بدء عشائر بني لام ثم قضت عليها الفتن والمحن والفيضانات والامراض الفتاكة وقامت مقامها بعد حين مدينة صغيرة عرفنا اولها على انها قضاء ارتبطت اداريا بلواء بدرة وجصان وكان فيها قائمقام اسمه (فكرت بك) وفيها قاضي من اهل مدينة استانبول وذلك في حدود سنة ١٢٥٣ هـ - ١٨٣٧ م وقد كان فكرت بك هذا شرس الأخلاق عصبي المزاج وقد اصطدم عدة مرات مع (بزون بن شاوي)من شيوخ البو بدر فأشتكى عليه في بغداد فعزلوه وقد توالى من بعده قائمقامون منهم الخامل الذكر ومنهم من ترك ذكراً حسناً وفعلاً طيباً فقد جاء في اخبار سنة ١٢٧١ هـ - ١٨٥٤ م يوجد في مدينة كوت الامارة جامعان احدهما اسسه عبد العزيز بك قائمقام كوت الامارة (العمارة) ويوجد فيها اربع خانات للمكارية وعشرة مضائف لوجهاء المدينة وسبعة بساتين خارج السور وتعداد بيوتها (٢٧٥) بيتاً والمدينة مسورة بسور له اربعة ابواب هي باب الشيوخ – باب الولاية – باب السوق – باب القشلة وفيها سوق صغير من عشرة دكاكين ومسقف بجذوع النخل ولا يوجد اكثر من تسعة بيوت مبنية بالطابوق وباللبن وفي هذه السنة جاء شخصان الى المدينة وابتنيا كورتين لفخر الطابوق وصنعه وليس في الكوت حمام وبيوتهم اكثرها مسورة من الطوف العالي ومسيج بالصريم (الصريم نوع من النبات فيه اشواك حادة وقوية يصعب اختراقه) وواسعة وداخلها غرف من الطين ليس فيها منافذ وعموم البيوت فيها اسطبلات لحيواناتهم واكثر السقوف من جذوع النخل وبعضها

من القصب والبواري وفي سنة ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦م ابتنت الحكومة العثمانية مذخر للحطب والفحم شمال عمارة (لنج) واصبح في كوت الامارة مذخران للحطب والفحم للوقود وتجهيز البواخر المارة بها .

كانت البواخر ترسو امام مدينة الكوت فيخرج الرجال والنساء والاطفال للتفرج على هذى المخترع العجيب (من المعلوم ان اول استعمال للسفن البخارية كان في زمن مدحت باشا)(١) وكان الكثيرمن الاهالي يبيعون على الركاب المسافرين ما تيسر عندهم من الخبز والدجاج والبيض وما اشبه ذلك وكان تعداد الكوت في هذا الزمان يقارب الالف وسبعمائة (١٧٠٠) نسمة ومن الجدير بالذكر ان اول باخرة رست على ضفاف مدينة الكوت هي الباخرة (دجلة) وشاهدها الاهلون باعجاب وذهول في شباط من سنة ١٢٥٢ هـ - ١٨٣٦ م وقد قيل انه حينما صرخ اول مركب رسا في الكوت صعق الناس حتى ظن البعض انه نفخ في الصور.

وفي اخبار سنة ١٢٧٧هـ - ١٨٦٠ م عين احمد بك قائمقام لكوت الامارة وفي عهده تم بناء ثلاث عمارات للحكومة منها تجديد سراي الحكومة بالاجر المفخور وثانيتها بناء مركز للجندرمة وثالثها بناء مذخر للوقود لتجهيز المراكب وتم بناؤه بالطابوق ايضا وكان موقع سراي الحكومة هو موقع المدرسة المركزية الابتدائية للبنين حاليًا ويمتد جنوباً على طول نهر دجلة ويأتي جنوبه مركز الجندرمة الذي اصبح فيما بعد خان الحاج عباس العلي ثم تملكه علوان عبدالله اما مذخر الوقود فموقعه بيت (الشيخ هادي اسد الله عالم الكوت رحمه الله) والذي ابتاعه بعد وفاته الحاج كاظم ابدير ومن الجدير بالذكر ان هذه الدار كانت لورثة يوسف الامير والد فرحان وابتاعها من فرحان في العهد العثماني عبود وحسن شبوط وفضولي ونصبوا بها ماكنة للطحين والثلج.

وجاء في اخبار سنة ١٢٧٨ هـ - ١٨٦١ م ان الكوت اصبحت متصلة بخطوط التلغراف والبريد المنظم وفي العام نفسه ربط الخط مع جصان وبدرة ومندلي ومن ثم ربط الخط مع مدينة العمارة ولايفوتنا هنا ان نذكر ان قضاء الكوت كان مرتبطاً اداريا بلواء بدرة وجصان وفي فترات ربط بلواء البصرة او العمارة واخرها بلواء بغداد ويذكر انه في ٢٨ محرم سنة ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م قدمت باخرة عسكرية من لواء العمارة تحمل متصرفها واعضاء ادارته ونزلوا في سراي الحكومة واستقبلهم احمد بك قائمقام كوت الامارة وطلب المتصرف فورا تشكيل وفد والسفر الى بغداد لاستقبال الوالي الجديد للعراق (مدحت باشا) وفي اليوم نفسه سافر الوفد عصرا وكان يضم كل من السادة احمد بك واعضاء الادارة وعلي ال بزون وهو والد المرحوم عباس العلي وحسن بن علي افندي البغدادي وجاسم اللامي الجصاني وهو والد عبدالله الريس وانصيف بن درويش امير ربيعة وتشرف الوفد بمقابلة الوالي وسلموا عليه وواعدهم خيرا بمطالبيهم وقد قام الوالي مدحت باشا بزيارتين لمدينة كوت الامارة الاولى سنة ١٢٨٦هـ- ١٨٦٩م والثانية في شهر شعبان سنة ١٢٨٨هـ - ١٨٧١ م

ومما يذكر هنا انه بعدما ازدادت حركة المراكب والسفن في نهر دجلة جعلت مدينة الكوت بلدا تجاريا مهما وكانت شركة ستيفن لنج لها امتياز بتسيير السفن التجارية بين البصرة وبغداد وقد اتخذت بلدة الكوت ميناء رئيسيا لها وكان وكيل شركة لنج في الكوت (حنا النصراني) ومن بعده (استيفان) ومن بعده (نعيم خمو) ومن بعده (ساسون اليهودي) وكانت الكوت في هذا العهد وهو عهد الوالي مدحت باشا قضاء يتبع لواء بدرة وجصان ومن الجدير بالذكر انه في سنة ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م وفي جمادى الاخرة روت جريدت الزوراء في عددها المرقم(١٣) ان(٣٥) شخصا من قبيلة ملكشاه هجم على مزارع قرية زرباطية وسلبوا ونهبوا ومن ثم تعقبوهم فقتل منهم اثنان وجرح البعض واستردت الاموال المنهوبة وهؤلاء مضوا هاربين الى الحدود فنجوا .

ومن حوادث هذه السنة ايضا ما جاء في جريدة الزوراء ان بعض الحوادث والوقائع والتجاوزات حدثت على اراضي باقسايا واراضي اغريبة التابعتين لقضاء الكوت من قبل الايرانين الاشقياء فارسل الوالي قوة الى هناك لتأديبهم .

بعد ان تقدمت مدينة (كوت العمارة) وأزدهرت عمرانياً وأقتصادياً واصبحت لها اهمية وتوسعت رقعتها في سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م تم ربط ناحيتي زرباطيا وجصان وقضاء بدرة بقضاء الكوت وتأسس في القضاء منصب جديد هو (نائب القائمقام) ومجلس الادارة وضبطية واعشار ومأمور التزام وكان القائمقام انذاك هو (فتح الله بك) وقد زار كوت الامارة في سنة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م الوالي تقي الدين باشا وكان

فـي سنـة 1294 هـ - 1877 م انشئت بعض المباني في الجانب الثاني من مدينة الكوت فقد نصبت شركة عيسائي معملٍ لغسل الصوف وحزمه وتحميله الى الخارج وكذلك نصبت الشركة ماكنة لتقطيع السوس وحزمه وتحميله الى الخارج وقد سمي بصوب (الـخان) وهذا نواة تأسيس الجانب الثاني من مدينة الكوت وقد سمي فيما بعد في العهد الملكي بصوب (الفيصلية) نسبة الى الملك فيصل الاول ملك العراق ثم سمـي بصـوب (العزة) بعـد اعلان ثورة 14 تموز سنة 1958 م وسقوط العهد الملكي وقيام العهد الجمهوري في العراق

قائمقام كـوت الامـارة انذاك علي افندي .
وفي هذه السنـة ايضا تأسست دائرتان في داخـل السـراي الحكومـي الاولى للنفوس والثانيـة بلديـة وكان يدير دائـرة البلديـة ضابـط تـركـي اسمـه جودت افنـدي وهو من سكان مدينة الكـوت القدمـاء وليس له عقـب فـــي المدينـــة . وفي سنة ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ م عينـت الحكومة العثمانيةٍ عبالله بن جاسـم اللامي الجصاني رئيساً للبلدية وقد عمل فيها طويلاً علماً انه قد شغل رئاسة البلدية قبلـه السيد حسين الحكيم البغدادي .

وقـد شغـل رئاسـة البلديـة ايضـاً محمـد نجيـب بـن خميـس السبـع وخضـير حفيد سبـع وكان فـي مجلـس ادارة القضـاء الـسيـد حمودي الحكيم البغـدادي والسيد عبد الحميـد الطباطبائي والـد السيد سعيد الطباطبائي .

فـي سنـة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م انشئـت بعض المباني في الجانب الثـاني من مدينة الكـوت فقـد نصبت شركـة عيسائـي معملاً لغسل الصوف وحزمه وتحميله الى الخارج وكذلـك نصبـت الشركـة ماكنـة لتقطيـع السوس وحزمه وتحميلـه الى الخارج وقد سمي بصوب (الـخان) وهذا نواة تأسيس الجانـب الثاني من مدينة الكـوت وقد سمي فيما بعد في العهد الملكي بصوب (الفيصلية) نسبـة الى الملك فيصل الاول ملك العراق ثم سمـي بصـوب (العـزة) بعـد اعلان ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ م وسقوط العهد الملكي وقيام العهد الجمهوري في العراق .

في حـدود سنـة ١٣٠٠ هـ- ١٨٨٢ م انشيء في مدينـة الكـوت حمامـان لاول مـرة همـا حمـاما سعيـد للـرجـال والنسـاء (اذ يقع الحمامـان في السـوق المؤدي بـين ساحـة الخبـازات وساحـة العامـل وقـد تـركا في الوقت الحاضر) .

وفي سنـة ١٣١٤ هـ- ١٨٩٦ م اسس المدعو كسـار بن فضل حمامين علـى شاطيء دجلة احدهمـا للرجـــال والاخـر للنســاء لازالا موجودين علـى حالهمـا الى يومنـا هـذا ويطـلق عليهمـا (حمامٍ كسار للرجال وحمام كسار للنساء) . واخيراً ابتنى المدعو رؤوف الحـاج محمـــود الحمـــام الخامـس والذي اطلـق عليه اسـم الحمام الجمهـوري المقابل الى المدرسةالمركزيـة الابتدائية للبنين وبدأ عمله في بداية العهـد الجمهوري في العراق ومـــن الجديـر بالذكـر ان مدينـة الكوت لم تتوسع في بناء الحمامات العامة فقد اكتفت بما ذكرنا مـن الحمامات وذلك لعدم تشجيع الـنـاس لها و ان معظـم اهالي الكوت يبنون حماماتهـم فـي بيوتهـم ولكـون المدينـــة لا يرتادهـا كثير مـن الغربـاء او المتواجدين المؤقتين فأن التوسع في الحمامات لا يجدي نفعاً .

ومـن الابنيـة الشاخصـة ليومنا هـذا هـو سوق الباشا الكبـير والذي بناه محمد باشا الديار بكري متصـــرف لواء بدرة وجصان سابقـاً وهـــو اول سـوق منظـم في مدينة الكـوت شهـد تاريخهـا العثمـاني والحرب العالمية الاولى وجميع مراحل تاريخ الكوت فيمـا بعـد وليومنـا هـذا يتقاضـى ورثته مـوارده وقـد شاركهـم فيـه محمـد رؤوف محمـود وبعـض الاهلـين وقد اجـرى عليه محمد رؤوف بعض التصليحات والترميمات وقـد ظن البعض خطأً ان صاحب السوق هو محمد باشا الداغستاني .

التعليم في كـوت الأمارة :- فـي سنة ١٣٠٥ هـ -١٨٨٧م أنشئـت اول مدرسة أولية فـي كـوت الأمارة تعلم القـراءة والكتابة باللغة التركية وقد أستمرت حتـى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ومن طلابها محمد علي روشـي والحاج حسن شبوط والسيد سعيد الطباطبائـي والسيـد مجيـد الطباطبائي والحـاج غلام علي والشيخ سلمان والحـاج محسـن كـسـار والحـاج رشيد أبـو الهوى . وفـي سنـة ١٣٠٧هـ -١٨٨٩م فتحـت الحكومة العثمانية مدرسة تدعى (المدرسة الرشدية) وهي بمثابـة المرحلـة المتوسطـة ومـن طلابها الحـاج حسن الشبوط ورشيد السعيدي وحسـن السعيدي (والد الدكتـور المرحوم فاضـل السعيـدي) وتوفيق جعفر ومحمد صالح القريشي .

على أن هذا لايعني أن الحالـة الثقافية فـي الكـوت كـانـت تعتمـد علـى المدارس التي فتحتها الحكومة العثمانية بل كان للكتاتيب والمساجـد والعلمـاء الذين يرتـادون مدينة الكوت بين فترة وأخرى وخاصة في المواسم الدينيـةأو مواسـم الحصـاد دور في نشر الثقافة العربيـة الأسلامية وتعليم القـراءة والكتابة من خلال تعليم القرآن الكريم .

أمـا العلمـاء الذيـن كانـوا يفـدون علـى مدينة الكوت مـن مدينة النجف الأشرف في المواسـم الدينية ومواسـم الحصاد فكانت تعقد بوجودهم المجالس الثقافية والعلمية فـي المساجد وفـي بعض بيوتـات وجهـاء المدينـة يحضرهـا العـدد الكبـير مـن أبناء مدينـة الكـوت للتـزود بالعلـم والمعرفـة وللأسـهـام فـي تلـك المناقشات الطريفـة والمناضـرات الممتعـة وقـد ذكرت كثير مـن أخبار هذه المجالس وما دار بها عند الحديث عـن سيـرة أولئـك الرجـال الذين كان لهـم الـدور الفاعـل في ثقافـة البلد (الكـوت ومـا تبعهـا مـن البلـدات أدارياً) في حينـه . فمن الجدير بالذكر والطريف الذي ورد فـي تلك الكتـب الدالـة علـى الحس الثقـافي الأدبي . يقـال أن الأمـير نصيـف بـن درويش أمير ربيعة كان معاصـراً لـحجة الأسـلام الشيخ عباس بن الشيـخ علي بن الشيـخ جعفر آل كاشـف الغطـاء وكـان بـين الأثنـين رابطة صداقـة ومـودة وكان الشيـخ المذكور يزور الأمـير سنوياً فـــي الحسينيـة (الأحرار) وينزل ضيفاً عليـه ومن هنا توطدت أواصر الصداقـة بين العائلتين ففـي سنة ١٢٩٨هـ- ١٨٨٠م مرضـ الأمير نصيف في العلة التي مـات فيهـا وقد ذهـب الـى بغـداد للتطبب وكان للأمـير طبيـب خاص يراجعـه فـي مدينـة الكاظمية من جانب الكرخ ولما سمع الشيـخ عباس آل كاشـف الغطـاء بمرض الأمـير سافـر مـن مدينـة النجـف الأشرف قاصدا مدينة الكاظميـة لعيادته والأطمئنان علـى صحته وما أن وصل الشيخ الجليل مدينـة الكاظميـة حتى تـوفي الأمير نصيف فـي يـوم وصولـه ولهـذا نجـد المرحـوم الشيـخ محسـن الخضـري يداعـب الشيـخ عباس كاشف الغطاء بمقطوعة شعرية يقول فيها .

أمحلقاً للكرخ من وادي الحمى كيما يزور به الأميرٍ نصيفا
مهـلاً فأنـك لـم تعـد ذا علـة ألا وكـان لك الحمام رديفا

وقد شطر هذين البيتين الشاعر الشيخ محمد القزويني قائلاً .

أمحلقاً للكرخ مـن وادي الحمى نسراً يصفّ ولا يدفّ دفيفا
ومقدمـاً ملـك المنيـة قبلـه كيمـا يزور به الأميرٍ نصيفا
مهـلاً فانـك لـم تعد ذا علـة الأ وأدرج في الثياب لفيفا
كلا ولـم تمـرر بمضنى ناحـل الأوكـان لك الحمام رديفا

ومن شعر الشيخ مـحسن الخضري مداعباً الشيخ عباس كاشف الغطاء وفـي الموضوع المذكور أعلاه .

ألا مـن مبلغ العباس أني سـأدعو بالبقـاء لكـل ربعي
فأن تهلك ربيعة فهو شيخ و أن سلمت غدا من بعض ربعي

ومـن معاصـري الشيـخ عباس كاشـف الغطـاء قاضـي مدينة كوت الأمارة في ذالك العهـد السيد أحمـد شهاب الـراوي صاحب مخطوطة تأريخ الكـوت وكان شيخاً فاضلاً وأديبـاً شاعـراً ولـه مراسـلات مـع الشيخ عباس حفيد الشيخ جعفر الكبير وقد راسله الشيخ عباس حينما كان السيد أحمد الراوي في الكوت بابيات جميلة حوت تورية لطيفة لامثيل لها وهي .

يقولون قاضي الـكوت أصبح راوياً ولاخير في قاضٍ أذالم يكن راوي
ولكننـي صـاد الـى نيـل فضله وناهيك من صاد الى ماجداً راوي

أبـو الفضـل يـروي الفضـل عنـك مسلسلا وعهدة هذا النقل في ذمة الراوي

فاجابـه السيد أحمـد شهاب الـراوي قاضي الكوت بما يلي.

أذا ما روى الراوي حديث علومكم أبا الفضل صدقه فقد عنعن الراوي
لأنكـم سـر الوجـود وأنكـم مشاريع علم عنكم يصدر الراوي

ومـن الطرائـف الثقافيـة والأدبيـة المروية فـي مدينة كـوت الأمـارة في أواخرٍ العهد العثمـاني أنها كانـت تستقبـل سنوياً نخبة مـن العلماء الروحانيـين يقصدونها للراحة والأستجمـام وتحصيل مالهـم من الحقوق الـشرعيـة عند مشائخ ربيعـة وبني لام في جصان وكذلك مـا يترتب عليهم من الواجب الديني في الوعـظ والأرشـاد فتشرق بهـم مدينة الكـوت وتتـلألأ بهـم أنوارهـا وتفيـض معارفهـم في اجوائهـا وبأدابهـم تزدان مجالسها ومن فيض علومهم وأدابهم ينتهـل أبناؤهـا وقـد شهـدت الكـوت منهم نخبة أنتهى بهـم المطاف في ربوعها فنزلوا ضيوفـا على التاجر المعـروف الحاج علوان والد الحاج مهدي وهـم كل من الشيخ عباس أبن الشيخ علي كاشف الغطاء وكذلك السيد حسين بن السيـد محمـد بن جـواد العاملي صاحب كتاب (مفتاح الكرامة)

والشـيـخ مهـدي الشهير (حجـي الطائي) الشاعـر والعـالم المعـروف ومعهـم بعض العلمـاء الأخريـن وقـد مكثوا فـي الـكوت سبعـة أيـام أشرقت بنـور معارفهم وفاحت بعبـير أدابهـم وأصبـح بيت الحـاج علوان منتدى للعلوم الدينية ومجلساً من المجالس الأدبية وفد عليها شيوخ العـشائر ووجهاء المدينة يسمـرون معهم وينتفعون من فيض معارفهـم مـنهـم الشيـخ نصيـف والشيخ حبيـب أميرا ربيعة والشيـخ شمران الأمير والشيخ نفـل الأمير وغيرهـم كثير وعندما عزم العلمـاء الأفاضل على الرحيل والعودة الـى أهليهـم أستـأجر لهـم مضيفهم الحاج علوان مكاناً في أحدى البواخر العائدة الـى شركة بيت لنج لتقلهـم من الكوت الى بغداد فلما هـم المركـب بالأنطلاق أقـترح العلمـاء الضيـوف علـى الشيـخ مهـدي الطائـي أنٍ يصـف لهم الباخرة وسفرهـا فارتجل شعراً قال فيه واصفاً .

ومركب مثل مسرى الريح طار بنا من بلدة الكوتٍ يسـري نحـو بغـداد
تراه والنار فـي أحشاه مضرمة وفي سراه عـرته رعشـة الصـادي
أذا دنـا نحـو نـاد صـاح عل يـرى مجيب دعـوته مـن ذلـك النـادي
فينثني خائبـا تجـري مدامعـه من ذائب القلب مجرى السيل في الوادي هذه خلاصه مختصره تبين الحالـة الثقافيـة والأدبية في الكوت وعلماً أن وجهاء الكوت ومشائخها كانـوا يرتـادون دواويـن العلمـاء بشكل منتظم في كل يـوم جمعه وربما يحضر تلك المـجالس والدواوين مسؤولوا الدوائـر الرسميـة في المدينـة فيكـون الحديـث فيها علاوة على ماذكرنا عن أحوال وأحتيـاجات أبناء المدينة في مختلف المجالات وهنا تكمن الفوائد الجمه من هذه المجالس.

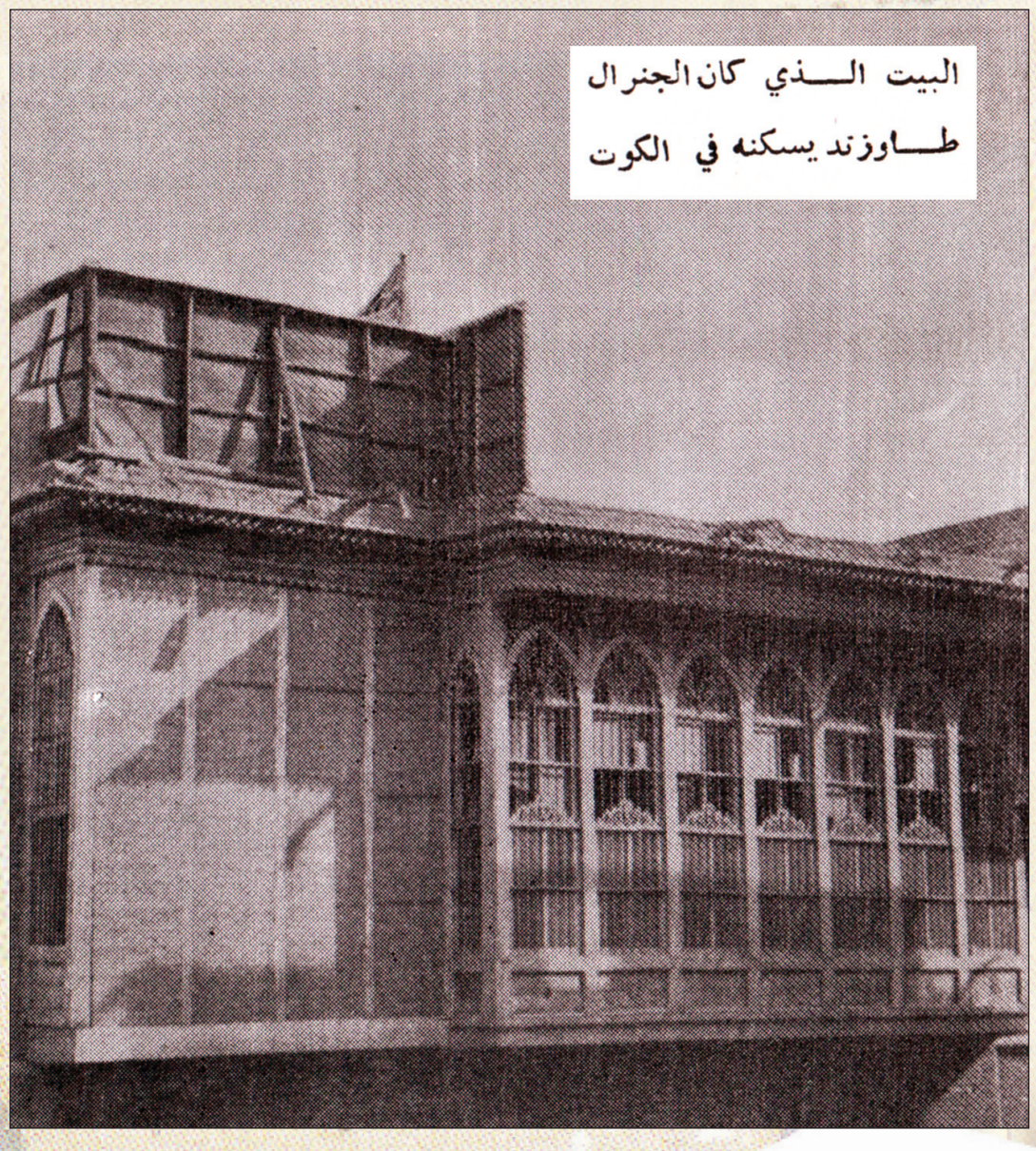

من طرائف فخري الزبيدي

كمال لطيف سالم

المرحوم فخري الزبيدي باحث فولكلوري وفنان وممثل كوميدي ومقدم برامج ومؤلف كتاب بغداد من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٤ ومن مؤسسي المتحف البغدادي شغل وظيفة مدير العلاقات في أمانة بغداد لسنوات طوال وله كتابات وذكريات لطيفة عن أيام زمان.

سنة ١٩٤٧ كان من زملائنا في معهد الفنون الجميلة ناظم الغزالي والمرحوم ناجي الراوي وحامد الإطرقچي وخليل شوقي ومحمود قطان فكونّا فرقة الزبانية إنضم حميد المحل إلينا وكان طالباً في قسم الرسم.

ومن الغريب أن ناظم الغزالي بدأ حياته الفنية بالإنتماء الى معهد الفنون الجميلة ببغداد نهاية الاربعينيات من القرن الماضي واختار فرع التمثيل وليس فرع الموسيقى.

وفي المعهد قدمنا أول تمثيلية على مسرح قاعة الشعب كتبها لنا الفنان حقي الشبلي(أصحاب العقول) حيث مثل الغزالي فيها دور (رجب الأخرس) وقدمت نفس التمثيلية من دار الإذاعة العراقية فيما بعد.

يذكر الراحل فخري الزبيدي جانباً من اهتمام ناظم الغزالي في التمثيل.

اثناء التمثيل عملت له مقلباً، وكان سبب هذا- المقلب- انه يرغب في أن يصبح مغنياً ونحن نعارض ذلك ولكنه ظل مصراً على رأيه، ففي احدى المسرحيات كان هناك دور- الحاج ناجي الراوي بدور الطبيب وأنا بدور الممرض وناظم بدور المريض الذي سنجري له العملية، وخلال التمثيل قلت للمرحوم ناجي الراوي:

إنني أعمل معك لسنوات ممرض فاعطني الفرصة لكي أجري هذه العملية.

ولما كان المشهد الكوميدي يجيز ذلك فقد وافق الراوي على ذلك.

وكان ناظم ممدداً على الأرض يرتدي دشداشة العمليات الخضراء واثناء التمثيل رجت أهلس شعر صدره وأقول له:

- ناظم جر عدل وابقه ويانه لو أهلس شعر جسمك وراسك كله؟

- وكان ناظم يتحمل ويجالد من الالم وهو يقول:

- فدوه فخري استر عليه وشتريد آني حاضر..

ولكني استمريت لمدة عشرة دقائق (أهلس) شعر صدره وهو يتقلب من الالم.

مقابل هذا المقلب المؤلم والمضحك في آن واحد فقد قابلني (بمقلب كبير) فعندما عقدتُ قراني على زوجتي الحالية أم علي دعوت جميع الأصدقاء للحضور الاّ أن ناظم جاء متأخراً في سيارة أجرة ظلت واقفة أمام البيت وعندما سألته عن سبب وقوف التاكسي، قال:

لدي عمل سأعود به..

والظاهر أن ناظم كان يتهيأ لعمل (نكتة) كبيرة أمام الأصدقاء.

وبعد أن أتم القاضي عقد القران إنسحب ناظم بسرعة الى سيارة التاكسي وأخرج صندوق كبيراً لا نعرف ما في داخله.

ولكنه جلبه ووضعه أمام القاضي وخرج مسرعاً.

وعندما فتحنا الصندوق وجدنا بداخله(حجلة للأطفال).

وهذه كانت نكتة الموسم في الوسط الفني آنذاك لأنني عندما تزوجت (أم علي) كان عمري ٢٩ سنة وزوجتي عمرها ١٣ سنة والحجلة كانت ترمز الى أن زوجتي طفلة تحتاج الى (حجلة)؟

ومن ذكرياته مع المرحوم أبو رحومي(ابراهيم عرب) صاحب الحكايات الفكهة واللطيفة قال:

في أحد ايام رمضان الكريم كنا مجموعة من الأصدقاء جالسين بعد الإفطار مع المرحوم ابراهيم عرب انسولف عن الأيام الجميلة والذكريات الحلوة وكيف كان رمضان ايام زمان ولعب المحيبس فقال ابراهيم:

- هو رمضان هسه مثل رمضان كبل !!!

- جاوبته يمعود ابو رحومي رمضان هو رمضان، هسه والا كبل اشيفرق!

- لا يابه لا رمضان كبل شكل وهسه شكل... الناس جانت طيبة والكلوب چبيرة والدنيه غير دنيه والبشر غير بشر والسمه صافية تدري كبل الكمر ابرمضان چان يطلع ٣٠ يوم بدر وميغيب.

- سألتهُ اشلون چنتو اتلعبون المحيبس؟

- كال چنت أكعد بالليل وره صلاة التراويح آني والجماعة على الشط بصوب الأعظمية والله يرحمه أسطه عبد الله الخياط وجماعته (أحد أشهر الفكهين في بغداد حينها) يكعد كبالنه بصوب الكاظمية.

- إي أبو رحومي واشلون تلعبون!

- جماعة أبو نجم (أسطه عبد الله الخياط) اثنين يلزمون البطانية ويبيتون المحبس، اصعد آني على صخرة عالية من صوب المعظم وأباوع عليهم واصيح افرز إكعد إنت أبو الصاية طلك أبو العرقچين اكعدانت ابو اليشماغ، ابو زبون البته جيبه من اليسرة وتشتغل الهلاهل والتصفيك.

- زين أبو رحومي اشلون اتجيب المحبس من ذاك الصوب!

- البلم موجود وآخذ فانوس لوكس ويايه واعبر الذاك الصوب واجيبه.

- أبو رحومي الفانوس شتسوي بيه، الدنيه كمره وضويه انته مو كلت الكمر يطلع ٣٠ يوم بدر وميغيب.

- أبو علاوي يمعود دعبرهه للسالفة مو مشت ومحد فكدهه. رحم الله ابراهيم عرب وفخري الزبيدي..

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي ـ رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون